

شَرْح
الْعِبُودِيَّةِ
لِسَيِّدِ الْهُدَى سَلَّمَ لِبْنَهُ تَيمِيَّة

شَرْح
فضِيلَةِ الشَّيخ
عَبْدِ الرَّزْقِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
الْأَسْتاذِ المَتَّاكرِ بِكَلِيَّةِ أَصْوَلِ الدِّينِ
جَامِعَةِ إِلَّاَمِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ الرَّشَادِيَّةِ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ

دَارُ الْفَضِيلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَقُوقُهُ الظَّرِيعَ مَحْفُظَةٌ

الطبعة الأولى

١٩٩٨-١٤١٩ م

الناشر

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الرياض ١١٤٣٣ - ص ١٠٣٨٢

تلفاكس ٥٣٣٣٦٣٣

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين،
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

فرسالة العبودية لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد
السلام بن تيمية الحراني، الإمام المجاهد الصابر العامل العامل رحمة الله تعالى
عليه، وهو إمام مشهور معروف لا يخفى، وشهرته تغنى عن الكلام عنه، وهو
إمام عظيم أظهر مذهب أهل السنة والجماعة ومعتقدهم في وقت كاد أن ينذر،
 واستفاد من علمه في حياته وبعد وفاته الجم الغفير من الناس، فكم من إنسان
هداه الله على يديه في حياته وبعد وفاته، ولو لم يكن من ذلك إلا شهود
العلامة ابن القيم رحمة الله عليه فإن الله سبحانه وتعالى هداه على يديه، وكم
من إنسان انحرف عن معتقد أهل السنة والجماعة فهداه الله على يديه في حياته
وبعد مماته، وقد قرأ كثير من الناس كتاب هذا الإمام العلامه واستفادوا
وأفادوا. وهو إمام عظيم في أصول الدين، وفي الفقه، وفي الحديث وفي
التفسير، وفي سائر أنواع العلوم. ولا يعرف له قولًا خطأً في أصول الدين رحمة الله تعالى
عليه، وأقواله و اختياره في فروع الدين مسددة.

وهذه الرسالة وهي رسالة العبودية على أسمها تتعلق بعبودية الله سبحانه
وتعالى، وهذا الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كانت ولادته سنة
ستمائة وواحد وستين هجرية وكانت وفاته سنة سبعمائة وثمانية وعشرين رحمة
الله تعالى عليه، فعمره ثمانية وستون عاماً.

وهذه الرسالة هي جواب لسؤال ألقى على الإمام رحمة الله، سئل فيه عن
العبادة ما هي؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها؟ وهل هي أعلى
مقامات الدين أم هناك شيئاً فوقها؟ فأجاب بهذه الرسالة، وكثيراً من رسائله
تكون جواباً لسؤال ألقى عليه - رحمة الله - كالعقيدة الوسطية وهي من أحسن

كتب شيخ الإسلام في المعتقد جواباً لسؤال من بلدة الواسطي فسميت الواسطية، والحمويه جواب لسؤال من بلدة حما فسميت الحمويه، والتدمريه جواب لسؤال سائل من بلدة تدمر فسميت بالتدمريه، وهكذا هذه الرسالة . وهي رسالة عظيمة وهي تقع في النسخة التي معي فيما يقارب اثنين وخمسين صفحة .

ومنحاول إن شاء الله أن نتناول هذه الرسالة بالشرح والتقرير ، على أن يكون الشرح متوضطاً ولو أردنا أن نتوسع في شرح هذه الرسالة لطال بنا الوقت ، لكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله .

ونسأل الله تعالى أن ينفع بها ، ونسأله تعالى لنا وللجميع العلم النافع والعمل الصالح ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين إن الحمد لله، نحمده ونستعينه نستغفره، وننحو بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد..

فقد سئل شيخ الإسلام وعلم الأعلام، ناصر السنة، وقائم البدعة: أحمد بن عبد الخليل ابن تيمية رحمه الله عن قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(١)، فما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ وهل هي أعلى المقامات في الدنيا والآخرة، أم فوقها شيء من المقامات؟ وليحيط لنا القول في ذلك.

قوله فقد سئل: (هذا هو السؤال الذي وجه للإمام العلامة رحمه الله، فقد سئل عن قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، وهذا الخطاب في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ خطاب موجه إلى جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنشأهم، عربهم وعجمهم، أحراهم وعبيدهم، كلهم موجه إليهم هذا الخطاب، وكلهم مطالب بالعبادة وهذا أول أمر في القرآن الكريم في سورة البقرة، أول أمر وجهه الله إلى الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فسئل الإمام رحمه الله عن هذه الآية الكريمة .

يقول السائل: الله تعالى أمرنا بالعبادة، فما هي العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل في العبادة أم هناك شيء يخرج منها؟ وما حقيقة العبادة؟ وهل هي أعلى المقامات أم فوقها شيء من المقامات؟، يعني أنه سؤال

(١) سورة البقرة: آية: ٢١.

فأجاب رحمة الله:

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلوة، والزكاة، والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجبار واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الأدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشبة الله والإناية إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضاءه، والتوكيل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه. وأمثال ذلك: هي من العبادة لله.

له فروع، وسيأتي في الجواب إن شاء الله أن العبادة تشمل جميع الأوامر والنواهي، ومجموع الدين كله داخل فيها؛ وحقيقة العبودية أن تعبد الله مخلصاً له الدين، وهي أعلى المقامات حتى إن أفضل الناس وهم الأنبياء والرسل، وأعلى مقاماتهم العبودية والرسالة، وكذلك أعلى مقامات نبينا عليه الصلاة والسلام العبودية والرسالة).

وقوله العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة هذا هو تعريفها، أي اسم يجمع كل ما يحبه الله ويرضاه سواء كان هذا قولًا أو عملاً، سواء كان باطنًا أو ظاهرًا، سواء كان من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح أو من أقوال اللسان، وكل ذلك داخل في مسمى العبادة ما دام يحبه الله ويرضاه، وكل شيء يحبه الله ويرضاه فهو عبادة، سواء كان قولًا أو عملاً وسواء كان باطنًا أو ظاهرًا، سواء كان من أقوال اللسان أو من أقوال القلب، سواء كان قول القلب أو قول اللسان أو عمل القلب أو عمل الجوارح، كل ذلك في مسمى العبادة ما دام شيئاً يحبه الله ويرضاه. وبعبارة أخرى: العبادة: هي امتحان أوامر الله واجتناب نواهيه، فهي أداء الواجبات وترك المحرمات، أداء الواجبات التي أوجبها الله قولًا أو فعلًا،

باطناً أو ظاهراً، وترك المحرمات التي حرمتها الله قوله أو فعلًا، باطنًا أو ظاهراً.

ثم مثل المؤلف رحمة الله فقال: فالصلوة والزكاة والصيام والحج كل هذه من أنواع العبادة، والصلوة فيها أعمال القلوب وأعمال الجوارح، أعمال القلوب في إخلاص أدائها لله، وأقوال اللسان حيث فيها ذكر وقراءة وتسبيح وتهليل، والزكاة كذلك إعطاء وعقيدة، والصيام كذلك إمساك بنيّة، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وbir الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل هذا عبادة، وجهاد الكفار عبادة، وجهاد المنافقين عبادة، والإحسان إلى الجار عبادة، والإحسان إلى المسكين، والإحسان إلى المملوك من الأداميين، والإحسان إلى المملوك من البهائم، ودعاة الله عبادة، والذكر عبادة، والقراءة عبادة.

وكذلك أيضًا مثل لأعمال القلوب: فحب الله ورسوله هذا عمل قلبي، خشية الله عمل قلبي، الإنابة إلى الله عمل قلبي، إخلاص الدين عمل قلبي، والصبر لحكم الله عمل قلبي، والشكر لنعم الله عمل قلبي، والرضا بقضاء الله عمل قلبي، والتوكّل على الله يجمع أمران يجمع فعل الأسباب وتفويض الأمر إلى الله، والرجاء لرحمة الله، والخوف من عذابه، كل ذلك من العبادة.

والخلاصة أن العبادة تشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأقوال القلب وأقوال اللسان. أقوال اللسان: مثل الذكر، وتلاوة القرآن، والتسبيح والتهليل، والتكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وأقوال القلب: إقراره وتصديقه، وعمل القلب مثل ما سبق: حب الله ورسوله، خشية الله وإنابة إليه، إخلاص الدين، الصبر والشكر والرضا والرجاء والخوف، كل هذه من أعمال القلوب. أعمال الجوارح: الصلوة والزكاة والصلوة والحج، صدق الحديث، أيضًا هذه من أقوال اللسان.

وذلك: أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها. كما قال الله تعالى: ﴿فَوَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾^(١) وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿فَاعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢).

وكذلك قول هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم لقومهم . وقال تعالى: ﴿فَوَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَيْنَا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿فَوَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَآتَنَا رَبِّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٥). كما قال في الآية الأخرى: ﴿هُبَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْنَا مِنَ الطَّيَّاتِ وَأَعْمَلُوْنَا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُوْنَ عَلَيْمٌ﴾^(٦).

وي يكن القول بأن العبادة تشمل: كل شيء جاء به الشرع، سواء ما أمر به الشرع، أو ما نهى عنه الشرع، سواء كان هذا الذي أمر به الشرع أو نهى عنه الشرع قوله أو فعلًا، سواء كان من أقوال اللسان أو من أقوال القلوب، سواء كان من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح).

وقوله وذلك أن العبادة: هذه منزلة العبادة عند الله، فهي الغاية المحبوبة لله والمرضية له، وما دامت العبادة هي الغاية التي يحبها الله ويرضاها، فهي أعلى منزلة، أعلى منزلة لك أيها الإنسان أيها المخلوق أن تكون عبداً لله وأن تتحقق العبودية لله، وإذا حققت العبودية لله صرت محبوبًا لله مرضيًّا له، وأكثر الناس تحقيقاً للعبودية هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأكمل الرسل تحقيقاً

(١) سورة الذاريات آية : ٥٦.

(٢) سورة الأعراف آية : ٥٩.

(٣) سورة التحUnit : ٣٦.

(٤) سورة الأنبياء : ٢٥.

(٥) سورة الأنبياء : ٩٢.

(٦) سورة المؤمنون : ٥٢.

للعبودية هم أولى العزم الخمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى، ونبينا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وأكمل أولى العزم الخمسة تحقيقاً للعبادة الخليلان إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وأكمل الخليلين تحقيقاً للعبادة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وبهذا يتبيّن أن أكمل الناس تحقيقاً للعبودية أكمل الخلق هو نبينا ﷺ، ثم يليه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم يليه موسى عليه الصلاة والسلام، ثم بقية أولى العزم الخمسة ثم بقية الرسل، ثم سائر الأنبياء ثم بعد ذلك الصالحون من عباد الله الصديقون، ثم بعد ذلك الشهداء، ثم الصالحون، هؤلاء هم أكمل الناس على التحقيق على هذه المراتب الأربع، أ - الأنبياء، ب - الصالحون، ج - الشهداء، د - الصديقون، وأكملهم الصديق الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم يليهم سائر المؤمنين، وفي مقدمتهم العلماء والأئمة والأخيار.

وال العبادة هي التي خلق الخلق من أجلها، وهذا يدل على عظم منزلة العبادة وأن كمال المخلوق أن يكون عبد الله، ولذلك خلق الخلق من أجلها، كما قال سبحانه وتعالى **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَانَ إِلَّا يَعْبُدُونَ﴾**، وأرسل بها الرسل، فكل الرسل أرسلاً يأمرن قومهم بعبادة الله، كما قال تعالى عن نوح أنه قال: **﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ﴾**، وهود قال **﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ﴾**، وصالح قال لقومه **﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ﴾**، وشعيب قال لقومهم **﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ﴾**، كل رسول بعثه الله يأمر قومه بعبادة الله، كما قال تعالى **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**، قال سبحانه **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾**، قال سبحانه **﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَآتَانَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونَ﴾**، قال سبحانه مخاطباً الرسل **﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾**. وبهذا يتبيّن أن أعلى مقام يكون للإنسان هو تحقيق العبودية لله، وأكمل الناس تحقيقاً لهذه العبادة هم الرسل عليهم الصلاة والسلام).

وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال: ﴿هُوَاعْبُدْ رِبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْبَيْنَ﴾^(١). وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(٢) (١٩). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾^(٣).

وَذُمُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٤).

ونعت صفة خلقه بالعبودية له، فقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفْجِرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٥).

وقال ﴿وَرَبِّ الْرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنَا وَإِذَا حَاطَبُوهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٦). الآيات.

ولما قال الشيطان: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتِي لَأَزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٧) إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^(٨) قال هَذَا صِرَاطٌ عَلَيْيَ مُسْتَقِيمٌ^(٩) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْفَارِينَ^(١٠).

وقوله وجعل ذلك لازماً: هكذا تكون منزلة العبادة، فمتزلتها عظيمة بالنسبة للمخلوق، وإذا حقق العبادة فإن قربه من الله على قدر تحقيقه لهذه العبادة، ولا يتصل أحد من المخلوقين فيخرج عن هذه العبادة أبداً، وإذا أدعى رجل أن

(١)

(٢) سورة الأنبياء : ١٩ - ٢٠ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٠٦ .

(٤) سورة غافر : ٦ .

(٥) سورة الإنسان : ٦ .

(٦) سورة الفرقان : ٦٣ .

(٧) سورة الحجر : ٣٩ - ٤٢ .

هناك أحد يسقط عنه التكاليف ولا يكلف بالعبادة وعقله ثابت معه وليس مخوفاً ولا مجنوناً إلا الحائض والنفساء يسقط عنهم الصلاة، والصوم في حال الحيض والنفاس، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً. كما نص على ذلك الأئمة كشيخ الإسلام وغيره - نسأل الله السلامة والعافية - ولهذا جعل الله العبودية لازمة لرسوله حتى الموت ، مع أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أكمل الناس ولكن الله جعل العبادة لازمة له ، فقال **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** واليقين هو الموت ، يعني استمر على عبادة ربك والزمهها حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك .

وكذلك الملائكة والأنبياء فهم أفضل خلق الله ، وقد وصفهم الله تعالى بالعبادة ، فقال **﴿وَلَهُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** وهذا عام ، يعني هو مالك السماوات والأرض ، ثم قال : **﴿وَمَنِ عِنْدَهُ﴾** وهم الملائكة **﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾** (١) يسبحون الليل والنهر لا يفترون ، هذا وهم الملائكة والأنبياء والرسل أفضل المخلوقات ، قال تعالى **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾** وهم الملائكة **﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَ لَهُ يَسْجُدُونَ﴾** .

ثم أخبر أن من استكبر عن عبادة الله فإنه سيدخل جهنم صاغراً ، قال سبحانه **﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَآخِرِينَ﴾** . ونعت صفة خلقه بالعبودية ، فقال عن الأبرار : **﴿عَيْنًا يَشَرِّبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾** هذه الإضافة إضافة تشريف وتكريم ، وقال سبحانه : **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنًا وَإِذَا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾** (٢) **وَالَّذِينَ يَبِتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾** ، فإذا صافهم إليه سبحانه تشريفاً وتكريراً ، وأخبر الله تعالى عن إبليس أن الله تعالى لما أنظره أقسم أنه سيغوي

وقال في وصف الملائكة بذلك: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ولَدًا سُبْحَانَهُ بِلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ^(٢٦) لا يَسْبُقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ^(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ^(٢٨) إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِبَتِهِ مُشَفِّقُونَ^(٢٩)»^(١) وقال تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ولَدًا^(٣٠) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا^(٣١) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا^(٣٢) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ ولَدًا^(٣٣) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَخَذَ ولَدًا^(٣٤) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ^(٣٥) وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَيَ الرَّحْمَنُ عَبْدًا^(٣٦) لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَهُمْ عَدًّا^(٣٧) وَكُلُّهُمْ آتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٣٨) فَرِدًا^(٣٩)»^(٢).

الناس واستثنى عباد الله المخلصين، فإنه ليس له سلطان عليهم، قال الله تعالى عنه «بِمَا أَغْرَيْتَنِي لِأَرْسِلَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَغْرِيَهُمْ أَجْمَعِينَ^(٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ^(٤٠) الْمُخْلَصِينَ»، وفي آية أخرى «إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ^(٤١) الْفَارِينَ»، فأضافهم الله عز وجل إليه في قوله: «إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ^(٤٢) سُلْطَانٌ» وهذه الإضافة إضافة تشريف).

وقوله وقال في وصف الملائكة: هذا في وصف الملائكة، فقد وصف الله تعالى الملائكة بالعبودية، وأنهم لا يخرجون عن العبودية، فقال سبحانه «بِلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ» يعني الملائكة عباد مكرمون، لا يخرجون عن العبودية. «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ ولَدًا^(٣٠) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا^(٣١) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ^(٣٢) وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا^(٣٣)» هذا في بيان تعظيم من نسب الولد لله، وأن هذا أمر عظيم، فمن نسب الولد لله وقال لله ولد فهو مشرك، وقد قال على الله قولًا عظيمًا، ولهذا قال الله تعالى «لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا^(٣٤)» يعني أمراً عظيمًا، «تَكَادُ السَّمَوَاتُ^(٣٥) يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا^(٣٦)» أي أن هذا أمر عظيم تكاد تنظر له

(١) سورة الأنبياء ٢٦-٢٨.

(٢) سورة مرثيا: ٨٨-٩٥.

وقال تعالى عن المسيح الذي ادعى فيه الإلهية والبنوة: **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**^(١). ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

السموات وتنشق الأرض وتخر الجبال، حيث ادعوا للرحمـن الولد وما ينبغي للرحمـن أن يتـخذ ولـداً، ثم قال سبحانه **﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾**، كل من في السـموات والأـرض يأتي يوم القيـامة عبداً للـله مـعبد مـربوط مـقهـور مـذلـل مـصرف مـدبـر، تنـفذـ فيه قـدرـةـ اللـهـ وـمشـيـتهـ، ليس لهـ من نـفـسـهـ وـجـودـ وـلـاـ خـرـوجـ لـهـ عنـ قـدرـةـ اللـهـ وـنـفـوذـ مشـيـتهـ.

وقولـهـ: وقالـ تعالىـ عنـ المـسيـحـ: المـسيـحـ عـيسـىـ بـنـ مـرـيمـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ نـبـيـ اللـهـ، وـهـوـ مـنـ أـوـلـىـ الـعـزـمـ الـخـمـسـةـ، وـهـوـ عـبـدـ اللـهـ لـاـ يـخـرـجـ عـنـ العـبـودـيـةـ، اـدـعـتـ فـيـهـ النـصـارـىـ الـآـلـهـيـةـ وـالـبـنـوـةـ، فـادـعـوـ أـنـهـ إـلـهـ وـأـنـهـ اـبـنـ اللـهـ، قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ **﴿لَقَدْ كَفَرَ الظَّاهِرُونَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾**، وـمـعـ ذـلـكـ فـالـمـسـيـحـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ عـبـدـ لـاـ يـخـرـجـ عـنـ العـبـودـيـةـ، عـبـدـ اللـهـ فـكـيفـ يـدـعـيـ فـيـهـ النـصـارـىـ أـنـهـ اـبـنـ اللـهـ أـوـ أـنـهـ إـلـهـ؟! تـعـالـىـ اللـهـ عـنـ ذـلـكـ، وـلـهـذـاـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـ المـسـيـحـ: **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**، أـنـعـمـ اللـهـ عـلـيـهـ بـالـبـنـوـةـ وـالـرـسـالـةـ، وـجـعـلـنـاـهـ مـثـلـاـ لـبـنـيـ إـسـرـائـيلـ.

وبـنـيـاـ مـحـمـدـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ أـفـضـلـ الـخـلـقـ، قـالـ فـيـ الـحـدـيـثـ الصـحـيـحـ **«لـاـ تـطـرـوـنـيـ كـمـاـ أـطـرـتـ النـصـارـىـ اـبـنـ مـرـيمـ إـنـمـاـ أـنـاـ عـبـدـ فـقـولـواـ عـبـدـ اللـهـ وـرـسـولـهـ** **﴿عَبْدٌ﴾** وـهـذـاـ هوـ مـقـامـهـ، وـهـذـاـ مـكـانـهـ، وـهـذـاـ مـنـزلـتـهـ عـبـدـ اللـهـ وـرـسـولـهـ، **«لـاـ**

(١) سورة الزخرف: ٥٩.

(٢) رواه البخاري [٣٤٤٥].

وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله. فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ و قال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾^(١). وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لَبَدًا﴾^(٢). وقال في التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ﴾^(٣)

تطروني) الأطراء هو مجاوزة الحد في المدح ، ، والكذب فيه ، والغلو ، لا تطروني ولا تغلوني فترفعوني من مقام العبودية والرسالة إلى مقام الألوهية ، كما ادعت النصارى في عيسى .

وقوله وقد نعته الله: هذه أعلى المقامات لنبينا ﷺ، ومع ذلك وصفه الله تعالى بالعبودية ، ولو كان هناك شيء أعلى من هذه العبودية لوصف الله بها نبيه في هذه الحالات :

الحالة الأولى : حالة الإسراء ، لما أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء ، قال الله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ، إذاً رسول الله ﷺ عبد وليس بملك ولا إله ، وليس ابن الله . كما تدعى النصارى في عيسى ، بل هو عبد الله ورسوله .

وفي مقام الإيحاء قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ فسماه عبده ووصفه بالعبودية .

وفي مقام الدعوة إلى الله قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ . وفي مقام إنزال الكتاب قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ .

(١) سورة النجم: ١٠ .

(٢) سورة الجن: ١٩ .

(٣) سورة البقرة: ٢٣ .

فالدين كله داخل في العبادة.

ولو كان هناك شيء أعلى من العبودية لوصف الله بها نبيه، فهذه أعلى المقامات وأشرف الأحوال وصف الله بها نبيه بالعبادة وهو أكمل الخلق وأفضل الخلق، فدل على أنه ليس هناك أحد يخرج عن العبودية من المخلوقين أبداً، ومن ادعى أنه يخرج عن عبودية الله وأنه يتجاوزها فإنه يكون كافراً مرتداً، ومن ادعى أنه يتتجاوز العبودية وأنه لا يكون عبداً لله فهذا مستكبر عن عبادة الله، ومن استكبر عن عبادة الله فهو كافر، واستسلم لله ولغيره فهو مشرك، ومن عبد الله وغيره فهو مشرك، وكلام المشرك والمستكبر كافر.

وقوله فالدين كله داخل: وهذه جملة مهمة، وهذا جواب سؤال من الأسئلة التي وجهت للمؤلف، نعم الدين كله داخل في العبادة، الصلاة داخلة في العبادة، والصوم داخل في العبادة، والحج داخل في العبادة، وbir الوالدين داخل في العبادة، وصلة الرحم داخل في العبادة، وحب الله ورسوله داخل في العبادة، وتلاوة القرآن داخل في العبادة، والتسبيح داخل في العبادة، والأمر بالمعروف داخل في العبادة، النهي عن المنكر داخل في العبادة، والإحسان إلى الناس داخل في العبادة، وكف الأذى عن الناس داخل في العبادة، وهكذا جميع فروع الدين كلها داخلة في العبادة، ليس هناك شيء يخرج عن العبادة.

وقد ثبت في «ال الصحيح »، أن جبريل لما جاء إلى النبي ﷺ في صورة الأعرابي وسأله عن الإسلام. قال: «الإسلام تشهد أن، لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: فما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسوله، والبعث بعد الموت. وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».. ثم قال في آخر الحديث «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»^(١). فجعل هذا كله من الدين.

وقوله وقد ثبت: هكذا في هذا الحديث العظيم حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما جاء جبريل وسأل النبي ﷺ، حتى يتعلم الناس ويستفيدوا، فسأل عن الإسلام ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، فذكر له أن الإسلام مبني على خمسة أركان، وهي: الشهادة لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج، ثم سأله عن الإيمان، وبين له أن الإيمان له أركان ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، والإيمان الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، ثم سأله عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ثم سأله عن الساعة، ثم سأله عن أماراتها، ثم سأله النبي ﷺ الناس قال تدرؤن من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أناكم يعلمكم دينكم. يسمى هذا دين، الإسلام والإيمان والإحسان كله دين، ويكون الدين ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ولهذا قال: «أناكم يعلمكم دينكم» وفي لفظ «أمر دينكم»، فجعل هذا كله من الدين.

(١) رواه مسلم (٨).

والذين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنته، فدان. أي، أذلتة فذل. ويقال: يدين الله، ويذين لله، أي يعبد الله ويطيعه، ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له. والعبادة أصل معناها: الذل أيضًا. يقال طريق معبد، إذا كان مذللاً قد وطنته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب: فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية الحبة له.

وقوله الدين يتضمن: هكذا الدين يتضمن معنى الخضوع والذل، فالمتدين لله هو الخاضع لله الذليل له، وغير المستكبر، العابده، الطيع لله كالجمل المذلل، ومنه قال طريق معبد: أي مذلل وطنته الأقدام، فالعبد معبد لله مذلل خاضع ليس مستكراً، بل هو منقاد يؤدي فرائض الله وينتهي عن محارم الله، ويستقيم على دين الله، ويقف عند حدود الله، هكذا العبد، ولهذا فإن الدين يتضمن معنى الخضوع والذل، قال: دنته فدان أي دنته فذل. فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.

وقوله والعبادة أصل: هكذا العبادة أصل معناها الذل، ومنه يقال في اللغة العربية: طريق معبد، إذا كان مذللاً وطنته الأقدام، ويقال: جمل ذلول أي منقاد، والعبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، يعني أن الإنسان يؤدي العبادة وهو خاضع لله محبًا له، وهكذا. فهو يعبد الله وهو منقاد له خاضع له محبًا لله عز وجل، خائف راجٍ هكذا تكون العبادة، يعبد الله بالحب وبالخوف وبالرجاء والذل، فال العبادة تتضمن غاية الذل لله وغاية المحبة لله، والحب كما سيقول المؤلف مراتب متعددة، منها التسميم، ومنها العلاقة، ومنها الصيانة، ومنها الغرام، كما سيذكر المؤلف.

فإن آخر مراتب الحب: هو التيم، وأوله: العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصباة، لانصاف القلب إليه ثم الغرام، وهو الحب الملائم للقلب، ثم العشق. وآخرها التيم، يقال: تيم الله، أي عبد الله، فالمتيم: المعبد لمحبوبه.

ومن خضع لإنسان مع بفضله له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه. ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق الحبة والخضوع التام إلا الله. وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْرَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَاتُكُمْ وَأَمْوَالُ أَفْتَرَفْتُمُوهَا وَتَجَارَةً تَخْشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(١). فجنس الحبة تكون لله ولرسوله كالطاعة، فإن الطاعة لله ولرسوله والإرضاء لله ولرسوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾^(٢) والإيتاء لله ولرسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا أَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(٣).

وقوله فإن آخر مراتب: فالحبة مراتب متعددة، وآخر المراتب كما ذكر المؤلف للتيم، وأول مراتب الحبة العلاقة، وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب، يتعلق به ويميل إليه، ثم يليها مرتبة الصباة، وسميت صباة لأن القلب ينصب إليه، ثم الغرام من مراتب الحبة وهو الحب الملائم للإنسان، ومنه قوله تعالى في جهنم «إن عذابها كان غراماً» يعني ملازمـاً، ثم العشق، وهو مراتب الحبة، وهذا لا يوصف الله به، وآخرها التيم قال (تيم الله) أي عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه .

(١) سورة التوبـة: ٢٤.

(٢) سورة التوبـة: ٦٢.

(٣) سورة التوبـة: ٥٩.

ويبين المؤلف رحمة الله أن العبادة لابد فيها من الخضوع والذل والمحبة، فالإنسان في عبادته يخضع لله مع حبه له وإذلاله وتعظيمه. لكن لو أحب شخصاً من المخلوقين فإن خضع له وأحبه صارت هذه عبادة، أما إذا خضع لإنسان ولم يحبه فلا تكون عبادة. أو أحب إنسان ولم يخضع له فلاتكون عبادة، لابد من اجتماع الأمران فلو أحب شخصاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما يحب الإنسان ولده وصديقه وزوجته لكن لا يخضع لهم. ولا يذل لهم؛ وإذا خضع لإنسان ولم يحب له كما يخضع الإنسان لسلطان أو معتدي قاهر، فإنه يخضع له ولكن لا يحبه بل يبغضه فلا يكون عبادة، فلا بد من اجتماع الأمرين خضوع وذلك مع محبة وإجلال في عبادة الله، أما إذا انفرد أحدهما فلا يكون عبادة، وكل ما أحب لغير الله تكون محبتة فاسدة، وكل معظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل، قال تعالى في سورة التوبية: ﴿قُلْ إِنَّ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَآتَيْنَاكُمْ وَإِخْرَانِكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالَ أَفْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، هذا فيه الوعيد الشديد على من قدم شيئاً من هذه الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله، ولهذا قال ﴿فَتَرَبَصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فجنس المحبة تكون لله وللنرسول، فالله تعالى والرسول يحب، والطاعة كذلك تكون لله وللنرسول، والإرضاء يكون لله وللنرسول ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ والإيتاء يكون لله وللنرسول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

أما العبادة والتوكيل والخوف فهذا لا يكون إلا لله فما يعبد الرسول، فالعبادة خاصة لله، والتوكيل خاص بالله سبحانه وتعالى، والحسب خاصاً بالله سبحانه وتعالى، والدعاء خاص بالله، والنذر خاص بالله، والذبح، وهكذا،

وأما العبادة وما يناسبها: من الترکل، والخوف، ونحو ذلك، فلا تكون إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَا أَهْلُ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا اشْهُدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^(٢). فالإيتاء لله ولرسوله، كقوله، كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا﴾^(٣).

وأما الحسب - وهو الكافي - فهو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعَمُ الْوَكِيلُ﴾^(٤). وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين: الله. ومن ظن أن المعنى: حسبك الله والمؤمنون معه، فقد غلط غلطًا فاحشًا، كما قد بسطناه في غير هذا الموضوع.

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَنْهُ﴾^(٦).

فالعبادة بأنواعها خاصة بالله، ولا يعبد الرسول، لكن الطاعة تكون لله ولرسوله، والمحبة تكون لله ولرسوله، والإرضاء يكون لله ولرسوله، وهكذا.

وقوله العبادة وما يناسبها: هذا فيه بيان الحقوق الخاصة بالله والحقوق المشتركة بين الله وبين الرسول، فالحقوق الخاصة بالله هي العبادة؛ فلا يشاركه فيها أحد بجميع أنواعها؛ من الذبح، والنذر، والصلوة، والزكاة، والصوم،

(١) سورة آل عمران: ٦٤.

(٢) سورة التوبة: ٥٩.

(٣) سورة الحشر: ٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٧٣.

(٥) سورة الأنفال: ٦٤.

(٦) سورة الزمر: ٣٦.

والحج ، فجميع أنواع العبادة كلها خاصة بالله ، والحسب والكافية تكون بالله ، فلا تقول يكفينا الله ويكتفى الرسول ، وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده ﴿أَلِمَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدَهُ﴾ ﴿ حَسْبَنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الرَّوْكِيلُ﴾ ، فلا تقول : حسيبي الله والرسول لأن هذا حق خاص بالله ، الحسب والعبادة بجميع أنواعها والتوكيل والخوف والرجاء كل هذا من حق الله .

وهناك حقوق مشتركة بين الله وبين الرسول ، مثل المحبة فهذه تكون لله وللنرسول ، والطاعة تكون لله وللنرسول ، والإرضاء يكون لله وللنرسول ، والإيتاء يكون لله وللنرسول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ، فلا يخلط الإنسان بين حقوق الله الخاصة به وبين الحقوق المشتركة بين الله والرسول .

هناك حقوق خاصة بالرسول وهي التوقير ، والتعظيم ، والإجلال ، والتعزيز ، كما قال الله تعالى في سورة الفتح ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمَبْشِرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِزُوهُ وَتُؤْقِرُوهُ﴾ تعزروه وتقرره هذا للرسول ، والتعزيز والتوقير : أي التقدير والإجلال ، ثم قال ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا خاص بالله ، التسبيح والتكبير والتهليل هذا حق الله لأنها عبادة ، فلا تسبيح الرسول ولا تهلل الرسول ولا تكبر الرسول ، بل هذا خاص بالله ، وهناك حقوق مشتركة بين الله وبين الرسول ومنها : المحبة والطاعة والإيتاء والإرضاء . ولهذا قال الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، أي حسبك الله وحسب من اتبعك الله ، أما من ظن حسبك الله ومن المؤمنين فإن هذا خطأ فاحش ، أي من ظن المعنى أن الله والمؤمنين يحسبونك يا رسول الله فقد أخطأ خطئاً فاحشاً ، فالحسب خاص بالله ، ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني يكفيك الله ويكفي اتباعك من المؤمنين ، ليس المعنى أن الله

وتحrir ذلك: أن العبد يراد به المعبد الذي عبده الله، فذله ودبره وصرفه.

وبهذا الاعتبار: فالخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفحار، والمؤمنون والكافر، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم وملكيهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماته التامات التي لا يجاوزها برولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشاوا. وما شاؤوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرُ دِينِ اللَّهِ يَعْғُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(١).

والمؤمنين يكفونك يا محمد كما ظنه بعضهم، وقد نبه على ذلك المؤلف رحمة الله. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني حسبك الله، والحسب: معناه الكفاية، حسبك وحسب اتباعك.

وقوله وتحrir ذلك: هذا فيه بيان أن العبد له معنيان: عبد بمعنى المعبد، وعبد بمعنى العابد، فاعبد بمعنى المعبد أي الذي عبده الله فذله ودبره وصرفه تنفذ فيه مشيئة الله وقدرته، وهذا يشمل جميع المخلوقين، فجميع المخلوقين كلهم عباد الله سواء أكانوا أبراراً أو فجاراً، وسواء أكانوا مؤمنين أو كفاراً، وسواء عرفوا أو لم يعرفوا، وسواء اعترفوا أو جحدوا، كلهم عبيد ، بمعنى أن الله دبرهم وصرفهم ونفذت فيهم قدرته ومشيئته ما أحد يخرج عن قدرة الله، فمثلاً لا أحد يتمنع عن الموت، ولا أحد يتمنع عن المرض الذي يصيبه، فلا أحد يمنع ما أراده الله، ولا أحد يستطيع هذا.

إذا كل الناس عبيد لله، وهذه هي العبودية العامة، وعابد هنا بمعنى المعبد، يعني مذلل مقهور تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته رضى أو لم يرض ، شاء أو لم يشأ ، علم أو لم يعلم اعترف أو أنكر، كل عبد لله ﴿إِنَّ كُلَّ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾.

(١) سورة آل عمران: ٨٣.

فهو سبحانه رب العالمين، و خالقهم و رازقهم، و محييهم و ميتهم، و مقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، سواء علموا بذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرّفوا بذلك، و آمنوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جادلاً له، مستكبراً على ربه، لا يقر ولا يخضع له، مع علمه بأن الله ربه و خالقه.

فالمعرفه بالحق إذا كان مع الاستكبار عن قبوله والجحد له، كان عذاباً على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعَلَوْا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَا يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٣).

القسم الثاني: العبد بمعنى العابد، الذي عبد الله باختياره فأطاع أمره وأمر رسوله، فصلى، وصام، وزکی وأدى فرائض الله، وأطاع أمر الله وأمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووالى أولياءه وعادى أعداءه باختياره، هذا عبد الله على الحقيقة، هذه هي العبودية الخاصة، التي من حقها أثابه الله.

أما العبودية العامة فهذه بدون اختيار الناس وبدون اختيار المخلوقين، فهم عبيد لله بدون اختيارهم ليس لهم خروج عن عبودية الله .
وال العبودية التي يُمدح الإنسان و يُثنى عليه بها، هي العبودية الخاصة، التي تكون عن اختيار وعن طوع.

(١) سورة النمل: ١٤ .

(٢) سورة البقرة: ١٤٦ .

(٣) سورة الأنعام : ٣٢ .

أما العبودية العامة فلا يلزم فيها أحد ولا يمدح فيها أحد، لأن الناس كلهم مشتركون فيها مؤمنهم وكافرهم، فكل الناس عبيد لله بمعنى العبودية العامة، أما العبودية الخاصة فتكون عن اختيار المخلوق ورغبته فيعبد الله باختياره.

ولهذا بين المؤلف رحمه الله، قال : فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومدبرهم ومحبيهم وميتيهم ، ما أحد يخرج عن هذا ، ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم ﴿أَفَيْرَ دِينَ اللَّهِ يَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ .

ولكن أهل الإيمان علموا بذلك واعترفوا به ، أما الجاحد أو الجاحد المستكبر على ربه فهذا لا يقر ولا يخضع ، لكن هو عبد سواء اعترف أو ما اعترف ، سواء علم أو لم يعلم ، سواء أقر أو لم يقر ، لكن إذا اعرف واستكبر على عبادة الله تكون هذه المعرفة عذاباً عليه ، كما قال الله تعالى عن فرعون وقومه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتْهَا أَنفُسُهُمْ ظَلَّمًا وَعَلُوًّا﴾ ، جحدوا بها واستيقنوا أنفسهم أي : الآيات التي جاءت إليهم ، فنفوسهم مستيقنة ولكن جحدوا ظلماً وعلوا ، فانتظر كيف كانت عاقبة المفسدين . وقال عن اليهود ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعرفون أنه رسول الله لكن ما آمنوا ، فهل تنفع هذه المعرفة؟ لا تنفع ، ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لِيَكُتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .. وقال عن كفار قريش ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي يا محمد ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لا يكذبونك في الباطن لكن يجحدون في الظاهر .

فإذا عرف العبد أن الله ربه وخلقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله.

وهذا العبد يسأل ربه، ويضرع إليه ويتوكل عليه.

لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه، وقد يبعده مع ذلك، وقد يبعد الشيطان والأصنام.

ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار.

ولا يصير بها الرجل مؤمناً، كما قال تعالى: **هُوَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ**

وقوله فإذا عرف العبد: إذن فالعبودية العامة هي المتعلقة بربوبية الله، وأن الله هو رب كل شيء وخلقه ومليكه ومدبره. وأما العبودية الخاصة فمتعلقة باللوهية الله وبعبادة الله وتوحيده والإخلاص له عن طوعية و اختيار ورغبة ورهبة.

وقوله وهذا العبد: والعبد هنا يعني العابد الذي عبد الله باختياره عبودية خاصة، وهو الذي يسأل ربه ويضرع إليه.

وقوله: لكن قد يطيع: وهذه العبودية العامة، فإذا عرف الإنسان أن الله ربه وخلقه وافتقر إليه اعترف بالربوبية العامة، لكن لا يكفي الوقوف عند الربوبية العامة. لأن الناس الذين يعترفون بربوبية الله ينقسمون إلى قسمين منهم من عبد الله عن طوائمه و اختياره، ومنهم من وقف عند الربوبية العامة ولم يعبد الله.

وقوله ومثل هذه العبودية: هذه العبودية العامة لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، أهل الجنة وأهل النار كلهم عبيد لله يعني العبودية العامة.

وقوله ولا يصير بها: هذا فيه بيان بأن المشركين أقروا بربوبية الله، لكن ما نفعهم هذا لأنهم ما عبدوا الله وما انقادوا للرسوله ولا اتبعوه فلا ينفع الاعتراف بالربوبية العامة وحده.

مُشْرِكُونَ هُنَّ (١) فَلَمَّا كَانُوا يَقْرُونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ هُنَّ (٢) . وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَنْ أَرْضٌ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) سَيَقُولُونَ لَهُ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٦) سَيَقُولُونَ لَهُ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ (٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجْرِيُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨) سَيَقُولُونَ لَهُ قُلْ فَإِنِّي تُسْحِرُونَ هُنَّ (٩) .

وَكَثِيرٌ مِنْ يَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَيَشَهِّدُهَا، لَا يَشَهِّدُ إِلَّا هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَهِيَ الْحَقِيقَةُ الْكُوْنِيَّةُ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا وَفِي شَهْوَدِهَا وَفِي مَعْرِفَتِهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ.

بَلْ وَإِبْلِيسُ مُعْتَرِفٌ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَهْلُ النَّارِ: قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿رَبَّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُعَذِّبُونَ (٤) . وَقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّي بِمَا أَغْرَيْتَنِي لِأَزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْرِيَنِي أَجْمَعِينَ (٥) . وَقَالَ: ﴿فَقَالَ فَبِعِزْتِكَ لَأَغْرِيَنِي أَجْمَعِينَ (٦) . وَقَالَ: ﴿فَقَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرِمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخْرُجْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا حَتَّنَكَ ذُرِّيَّةً إِلَّا قَبِيلَاهُ (٧) .

وَقُولُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ: هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْكُوْنِيَّةُ هِيَ الاعْتِرَافُ بِرِبوبِيَّةِ اللَّهِ وَنَفْوذُ قَدْرَتِهِ وَمُشَيْشَتِهِ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، حَتَّى إِبْلِيسُ مُقْرِبُهَا، وَفَرْعَوْنُ مُقْرِبُهَا.

وَقُولُهُ إِبْلِيسُ: هَذَا كَلِهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِبْلِيسَ مُعْتَرِفٌ بِرِبوبِيَّةِ اللَّهِ، قَالَ: رَبِّ، مُعْتَرِفٌ بِرِبوبِيَّةِ اللَّهِ لَكِنْ مَا نَفْعَهُ لَأَنَّهُ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَامْتَشَّالَ أَمْرِهِ، وَتَخَلَّفَ الْعَبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ فَمَا نَفْعَهُ ذَلِكَ.

(١) سورة يوسف: ١٠٦ .

(١) سورة الزمر: ٣٨ .

(٢) سورة المؤمنون: ٨٤ . ٨٩

(٣) سورة ص: ٧٩ .

(٤) سورة الحجر: ٣٩ .

(٥) سورة ص: ٨٢ .

(٦) سورة الإسراء: ٦٢ .

وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله رب وحالقه وخالق غيره، وكذلك أهل النار قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾^(١) وقال تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ أَفْقَهُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ فَأَلْوَاهُمْ بَلَى وَرَبَّنَا﴾^(٢).

لمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية، التي هي عبادته المتعلقة بالألوهية وطاعة أمره وأمر رسوله، كان من جنس إبليس وأهل النار.

فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق، الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان، كان من أشر أهل الكفر والإلحاد.

وقوله وأمثال هذا: إذا أهل النار اعترفوا بالربوبية العامة، قالوا: ﴿بَلَى وَرَبَّنَا﴾، قالوا ﴿رَبَّنَا غَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا﴾، لكن ما نفعهم هذا لأن العبودية الخاصة تختلف.

قوله فمن وقف: هكذا من وقف عند الحقيقة الكونية ولم يعبد الله فلم ينفعه يكون من جنس إبليس، فإن كان يظن بعض أولئك أنه من الأولياء وأنه يسقط عنه الأمر والنهي كما يقول بعض الصوفية؛ يظن أنه إذا استغرق في شهود الحقيقة الكونية سقط عنه الأمر والنهي، كان شرًا من أهل الكفر والإلحاد والعياذ بالله، والصوفية كما سيفصل المؤلف رحمة الله يظن بعضهم أنه يكفي أن ينظر إلى ربوبية الله وعموم مشيّته ونفوذ قدرته ومشيّته تكفي هذا ولا يمثل أوامر الله ولا يجتنب نواهيه، وسقط عنه التكاليف، يقول المؤلف عن هذا أنه شر أهل الكفر والإلحاد.

(١) سورة المؤمنون: ١٠٦ .

(٢) سورة الأنعام: ٣٠ .

ومن ظن وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك، كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله.

حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد، وهو العبد بمعنى العابد. فيكون عابداً لله، لا يعبد إلا إياه، فيطع أمره وأمر رسle، ويتوالي أولياءه المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه.

وهذه العبادة متعلقة بالله تعالى، ولهذا كان عنوان التوحيد «لا إله إلا الله». بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبد، أو يعبد معه إلها آخر.

فالإله: هو الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، ونحو ذلك.

وهذه العبادة: هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسle.

وقوله ومن ظن وغيره: بعض الصوفية يظن أن الخضر لما قتل الغلام وخرق السفينة ، أنه سقط عنه الأمر ، وهذا كذب ، والصواب أن الخضر نبي يوحى إليه ، وهذا فعله يوحى ، ولهذا قال الله تعالى : «وما فعلته عن أمري» ، وعلى القول الثاني أنه عبد لله ، ولكن لا يسقط عنه الأمر ، والصواب أنه نبي .

وقوله حتى لا يدخل في: هذا النوع الثاني من العبودية: العبد بمعنى العابد، فالعبد: بمعنى العبد وهي العبودية العامة، وهذا العبد بمعنى العابد وهي العبودية الخاصة، فيكون عابد لله لا يعبد إلا إياه فيطع أمره وأمر رسle ويتوالي أولياءه ويعادي أعداءه، وهذه هي العبودية الخاصة .

وقوله وهذه العبادة: هذه العبادة خاصة متعلقة بالله ، وقلنا إن العبودية العامة متعلقة بربوبية الله ، والعبودية الخاصة متعلقة بالله وعبادته ، والذي ينفع العبد هي العبودية الخاصة . أما العبودية العامة فهذه مشتركة بين المؤمن والكافر .

وقوله فالإله: فال العبادة الخاصة المتعلقة بالله هي التي يحبها الله ويرضاها .

وأما العبد: بمعنى المعبد، سواء أقر بذلك أو أنكره، فهذا المعنى يشترك فيه المؤمن والكافر. وبالفرق بين هذين التوقيعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلية في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي التي يحبها ويرضاها ويروي أهلها ويكرمهم بجنته، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، التي من أكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية، كان من أتباع إبليس اللعين، والكافرين برب العالمين، ومن أكتفى فيها ببعض الأمور دون بعض، أو في مقام [دون مقام] أو حال [دون حال] نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية.

وهذا مقام عظيم غلط فيه الغالطون، وكثُر في الاشتباه على السالكين، حتى زلت فيه من أكابر الشيوخ المدعين للتحقيق والتوحيد والعرفان، ما لا يحصيه إلا الله الذي يعلم السر والإعلان. وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر^(١) - رحمه الله - فيما ذكر عنه، وبين أن كثيراً من

وقوله وأما العبد: فهذه العبودية العامة، العبد بمعنى المعبد.

وقوله وبالفرق بين: هكذا لابد من التفريق بين العبودية العامة والعبودية الخاصة، من وقف عند العبودية العامة كان من أتباع إبليس، ومن عبد الله العبودية الخاصة فهو من أتباع محمد صلوات الله عليه، وإذا حصل له نقص في العبادة حصل له من النقص في دينه وعبادته بحسب النقص الذي انتقصه.

وقوله وهذا مقام عظيم: فكثير من شيوخ الصوفية وقفوا عند الربوبية العامة وظنوا أن هذا يكفي واعتقدوا أنه يسقط عنهم الأمر والنهي فهلوكوا مع الهالكين.

وقوله وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر: يقول المؤلف رحمه الله إن الشيخ

(١) هو الجيلاني زائد العلماء الذي اهدا له كتاب (الغنية) وهو مطبوع مشهور، توفي سنة (٥٦١) هـ انظر سير أعلام النبلاء [٤٥١ / ٢٠].

الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة فناعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون موافقاً للقدر.

عبد القادر الجيلاني، وهو من علماء الحنابلة ورجل صالح له كتاب الغنية، ولكن مع الأسف أن له قبراً يعبد ويطاف به، يقول: إن الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله فيما ذكر، كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، أي أمسكوا ويستسلمون إلى القضاء والقدر ولا يتحركوا ويقول أحدهم قدر الله على المعصية، ولا يتوب بل يستسلم للقضاء والقدر، يقول هذا غلط أما أنا فإنه انفتح لي روزنة الروزنة هي الكوة فناعت أقدار الحق بالحق للحق. يعني يقول أنا ما وقفت عند القدر، بل ناعت أقدار الحق، الحق الأولى: رؤيا الله، بالحق: يعني من أجل الحق، والمعنى أنني ما اقف عند القدر، وأقول المعصية مقدرة، فإذا قدر الله على المعصية لا أسكب بل أتوب إلى الله وأدفع قدر بقدر، أدفع قدر المعصية بقدر الطاعة والتوبة، فأتوب إلى الله ولا أقف.

كثير من الشيوخ يقول هذه معصية مقدرة على، أو هذا الكفر مقدر نسأل الله العافية، فهو يقول: هذا غلط، وهو لم يقف عند هذا بل انفتحت لي روزنة، فناعت قدرًا بقدر، المعصية مقدرة والتوبة مقدرة، لا تسكت فستسلم وقعت في معصية فتب إلى الله، ولا تقل المعصية مقدرة وقل التوبة مقدرة، وناعت قدر بقدر، فإذا حصلت معصية اتبعها بحسنة (واتبع السيئة الحسنة تمحوها) فلا تقف ولا تقول انظر إلى القدر فقط، بل أنت مأمور شرعاً بأن تفعل الأوامر وتحبّب التواهي ولا تقف عند النظر إلى القدر.

والذي ذكره الشيخ رحمة الله هو الذي أمر الله به رسوله.

ولكن كثيراً من الرجال غلطوا فيه، فإنهما قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يقدر على الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره، داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مثيسته، فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضى به ونحو ذلك، ديناً وطريقاً وعبادة، فيصاهمون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ شَيْءٍ﴾^(١).

وقالوا: ﴿أَنْطَعْمُ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمْهُ﴾^(٢). وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَا هُمْ﴾^(٣). ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به، ونصبر على موجبه في المصائب التي تصينا، كالفقر والمرضى والخروف. قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيرَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾^(٤).

وقوله والذي ذكره الشيخ: يعني أن الإنسان لا يحتاج بالقدر على المعصية بل يتوب إلى الله، فإذا استسلم لذلك صار موافق المشركين الذين يحتاجون بالقدر، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فاحتجو بالمشيئة.

وقوله وقالوا أنطعم: هكذا يصير الإنسان على المصائب ويرضى بما قضى الله وقدر ويفعل الأسباب المشروعة.

(١) سورة الأنعام : ١٤٨ .

(٢) سورة يس : ١٤ .

(٣) سورة الزخرف : ٢٠ .

(٤) سورة التغابن : ١١ .

قال بعض السلف: هو الرجل تنصيه المصيبة فعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وقال تعالى: **«مَا أَصَابَ مِنْ مُصِبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأُهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لَكِيلًا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرُحُوا بِمَا آتَاكُمْ»**^(١).

وفي «ال الصحيحين»^(٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «احتج آدم وموسى. فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفع فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمتك أسماء كل شيء فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطداك الله برسالاته وبكلامه، فهل وجدت ذلك مكتوبًا على قلبك قبل أن أخلقك؟ قال: نعم. قال: فحج آدم موسى».

وآدم عليه السلام لم يحتاج على موسى بالقدر ظناً أن المذنب يحتاج بالقدر، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل، ولو كان هذا عذر لكان عذراً لإبليس، وقمة نوح، وقوم هود، وكان كافراً.

ولا موسى لام آدم أيضاً لأجل الذنب، فإن آدم قد تاب إلى ربه فجتابه وهدى، ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة. ولهذا قال: «فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» فأجابه آدم: إن هذا كان مكتوبًا على قلبك قبل أن أخلقك.

فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقداراً، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من ثمام الرضى بالله ربها.

وقوله قال بعض السلف: هذه القصة التي وقعت بين آدم وموسى عليهم الصلاة والسلام، هو أن موسى عليه الصلاة والسلام لام آدم قال: كيف أخرجتنا ونفسك من الجنة، فاحتاج آدم بأن هذا مكتوب عليّ، قال الذي حاج آدم موسى وفي لفظاً كرره ثلاث قال فحاج آدم موسى، فحاج آدم موسى، فحاج آدم موسى، والمعنى غلبه وخصمته بالحججة، وذلك أن موسى لام آدم على

(١) سورة الحديد: ٢٣ ٢٢.

(٢) رواه البخاري ٤٣٤٠٩، ومسلم ٢٦٥٢.

وأما الذنوب، فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويترتب، فيتوب من صرف المعايب ويصبر على المصائب. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَقَوَّلَا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾^(٢). وقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَقَوَّلَا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣). وقال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّمَا مَنْ يَقْرَأْ وَيَسْمَعْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ﴾.

المصيبة وهي الخروج من الجنة، فقال آدم: المصيبة مكتوبة علي فلذلك غلبه باللحجة. وجاء في موضع آخر لشيخ الإسلام رحمه الله أنه قال: أنه لامه علي الذنب بعد أن تاب منه، والإنسان لا يلام على الذنب بعد أن تاب منه، فالمقصود أن الذنب قبل التوبة منه ليس حجه، الذنب لا يكون حجه ولو كان الذنب حجه لكان حجة لكل كافر، فالمقصود أن آدم غلب موسى باللحجة لأنه أحتج بالقدر على المصيبة أو على الذنب بعد التوبة.

وأما قوله، وأما الذنوب: هكذا مفهوم المسلم يجاهد نفسه حتى لا يقع في الذنب فإذا وقع في الذنب جاهد نفسه بالتوبة، والمصيبة يصبر عليها، يصبر ولا يجزع ولا يتسرّط، يحبس نفسه عن الجزاء، ولسانه عن التشكي، وجوارحه عما يغضّب الله.

(١) سورة المؤمنون: ٥٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٤) سورة يونس: ٩٠.

وجوب الأمر بالمعروف

وكذلك ذنوب العباد، يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويحاجد في سبيل الله الكفار والمنافقين، ويyoالي أولياء الله، ويعدادي أعداء الله، ويحب في الله ويغضض في الله.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا عَدُوِّي وَعَدُوكُمْ أُولَاءِ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوْدَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرِجْتُمْ جَهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوْدَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفِيَتُمْ وَمَا أَعْلَمُ بِمَنْ يَفْعَلُهُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّيْلُ^(١) إِنْ يَنْقُضُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءٌ وَيُسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَسْتَهِمْ بِالسُّوءِ وَرَدُّوا لَوْنَ تَكْفُرُونَ^(٢) لَنْ تَنْفَعُكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبِدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ العَدَاوَةُ وَالبغْضَاءُ أَبْدَأَهُمْ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ^(٤)﴾. وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُونَ مِنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءُهُمْ أَوْ أَبْنَاءُهُمْ أَوْ إِخْرَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَبَّ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيْعَانُ وَأَيْدِيهِمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ^(٥)﴾.

وقوله وكذلك ذنوب: وما سبق هذا في ذنوب العبد، فالإنسان ليس له أن يذنب فإذا وقع في الذنب تاب منه، وصبر على المصائب، أما ذنوب غيره فموقعه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحاجد في سبيل الله، يحاجد الكفار بالسلاح والمال، ويحاجد المنافقين بالحججة والبيان، ويyoالي أولياء الله ويعادي أعداء الله.

وقوله كما قال الله تعالى: هكذا بين المؤلف رحمة الله أن موقف المؤمنين الموالاة في الله والمعاداة في الله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ

(١) سورة المتحنة: ١ - ٤ .

(٢) سورة المجادلة.

وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾^(١). وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنَّنَا نَجْعَلُهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَا هُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ^(٤) وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ^(٥) وَلَا الظُّلُلُ^(٦) وَلَا الْحَرُورُ^(٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَا وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾^(٨).

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرُكَاءٌ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلِمًا لِرَجُلٍ هُلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾^(٩).

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مُمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقَاهُ مِنْا رَزْقًا حَسَنًا

وَالْيَوْمَ الْآخِرِ يُوَادُونَ مِنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا هو موقف الإنسان من ذنوب العباد؛ فالإنسان يجاهد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجهاد في سبيل الله، يوالى في الله ويعادي في الله ويبغض في الله ويحب في الله.

وقوله أفن يجعل المسلمين: وهذه الآيات فيها بيان الفرق بين المؤمنين والكافر وبين الأبرار والفجار ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَارِ﴾ بين الله الفرق بين المشرك والكافر فضرب سبحانه الأمثلة؛ ضرب الله مثلاً في بيان حسن التوحيد وقبح الشرك، وضربي الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وضربي الله مثلاً الرجلين أحدهما أبكم، وكل

(١) سورة القلم: ٣٥.

(٢) سورة ص: ٢٨.

(٣) سورة الجاثية: ٢١.

(٤) سورة فاطر: ١٩ - ٢٢.

(٥) سورة الزمر: ٢٩.

فَهُوَ يَقْنُعُ مِنْهُ سَرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوْنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْمَانًا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوْيُ هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١).

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢).

ونظائر ذلك مما يفرق الله فيه بين أهل الحق والباطل، وأهل الطاعة والمعصية، وأهل البر والفحور، وأهل الهدى والضلال، وأهل الفي والرشاد، وأهل الصدق والكذب.

فمن شهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية، سوى بين هذه الأصناف المختلفة التي فرق الله بينها غاية التفرق.

حتى تؤول به هذه التسوية إلى أن يسوى بين الله وبين الأصنام، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنَّ كُنَّا لَنَا لَهُي ضَلَالٌ مُبِينٌ (٧٦) إِذْ نُسَوِّي كُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣).

هذا في بيان حسن التوحيد وقبع الشرك، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، فلابد من التفريق فمن لم يفرق صار من أهل العبودية العامة، ومن فرق بينهم صار من أهل العبودية الخاصة.

وقوله ونظائر ذلك: يعني من شهد الحقيقة الكونية وهي ربوبية الله العامة سوى بين المؤمن والكافر، وبين البر والفاجر، ومن شهد الحقيقة الدينية فرق بينهم.

وقوله حتى تؤول به: وكلامهم هذا في النار، وهم يندمون على أن سروا الأصنام برب العالمين.

(١) سورة التحل: الآيات: ٧٥-٧٦.

(٢) سورة الحشر: ٢٠.

(٣) سورة الشعرا: ٩٧-٩٨.

بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سروا الله بكل موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقاً لكل موجود، إذ جعلوه هو وجود الخلوقات.

وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

وهوئلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد الله، لا يعني أنهم معبدون، ولا يعني أنهم عابدون.

وقوله بل قد آل الأمر : هؤلاء هم الاتحادية والعياذ بالله الذين يقولون اتحد الخالق والمخلوق ، فالخالق والمخلوق شيء واحد ، الرب هو العبد ، والعبد هو الرب ، والخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق ، هؤلاء تجاوزوا شهود الحقيقة الكونية بل إنهم قالوا إن الوجود واحد ، وما فرقوا بين الخالق وبين المخلوق فهم أعظم الناس كفراً ، فأعظم الناس كفراً الاتحادية .

وقوله وهوئلاء يصل بهم : أي لا يعني أنهم معبدون هذه العبودية العامة ، ولا يعني أنهم عابدون العبودية الخاصة ، فلا هذا ولا هذا ، وبذلك تجاوزوا النوعين فشهدوا على أنفسهم أنهم هم الخالق والمخلوق ، وهم الرب والعبد جميعاً نعوذ بالله ، ومن يقول بهذا القول ابن عربي رئيس وحدة الوجود ، وأبن سبعين ، والملحدة الذين جحدوا الوجود .

وخلاصة ما سبق هو أن العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، وبين رحمة الله أن العبودية تنقسم إلى قسمين عبودية عامة وعبودية خاصة ، والعبودية العامة وهي ربوبية الله ، شامل لكل مخلوق ، كل مخلوق هو عبد لله يعني أنه معبد مدبر تنفذ فيه قدرة الله ومشيئته شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم ، رضي أو لم يرض . أما العبودية الخاصة فهي متعلقة بإلهيته سبحانه وتعالى وطاعة أمره وأمر رسوله . والذي يعبد الله عن طوعية و اختيارهم المؤمنون ، وهذه العبودية خاصة بالمؤمنون . أما العبودية

العامة فهي شاملة للمؤمن والكافر.

ويبن رحمة الله أن من الناس من يشهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية، الحقيقة الكونية هي ربوبية الله العامة لكل شيء، فبعض الناس يشهد الحقيقة الكونية أي يشهد ربوبية الله لكل شيء وأنه تنفذ فيه قدرته ومشيئته، ويقف عند هذا الحد، ولا يتجاوزها إلى الحقيقة الدينية وهي عبادته المتعلقة باليهيتها وطاعة أمره وأمر رسوله.

والذين يشهدون الحقيقة الكونية ويقفون عندها بين المؤلف رحمة الله أنهم أقسام وأنه قد يصل الحال ببعض الذين يشهدون الحقيقة الكونية إلى أن يصلوا إلى القول بوحدة وجودها، وهذا غاية الكفر نسأل الله العافية. والذين يشهدون الحقيقة الكونية من الصوفية وغلاة الصوفية قد يصل بهم الأمر إلى القول بوحدة الوجود نسأل الله السلامه والعافية. يعني يشهدون بربوبية الله في كل شيء وأن قدرته نافذة في كل شيء، وأنه لا خروج له عن إرادة الله، ثم يصل به الحال إلى أنه يتتجاوز هذا فيرى نفسه أنه هو الله، وأنه هو الخالق والمخلوق، وهو العبد وهو المعبود، فتجاوزوا الحقيقة الدينية، وهؤلاء بلغوا الغاية في الكفر نسأل الله السلامه والعافية، حيث يقولون بوحدة الوجود، وسبب ذلك غلوthem في شهود الحقيقة الكونية.

وهناك قسم آخر من شهد الحقيقة الكونية يتحجج بالقدر في كل شيء يخالفون فيه الشريعة فيتحججوا بالقدر احتجاجا مطلقاً عاما.

وهناك طائفة ثالثة يرون أن الشريعة والتکاليف لازمة لمن أثبت لنفسه صفات وأثبت لنفسه فعلًا، فمن أثبت لنفسه أفعالاً وأثبت لنفسه صفات فالتكاليف لازمة له، أما من شهد إرادة الله الكونية ولم يجعل لنفسه صفات

إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صرَّح بذلك طواغيتهم كابن عربى صاحب «القصوص» وأمثاله الملحدين المفترين، كابن سبعين، وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العبادون والمعبدون.

ولا أفعال فإنه يسقط عنه التكاليف، ويقسمون الناس إلى قسمين: قسم الخاصة وقسم العامة، فالعامة عليهم التكاليف، والأوامر والتواهي، والخاصة الذين شهدوا الإرادة الكونية وألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفة لله تسقط عنهم التكاليف.

وهناك قسمًا رابعًا: من الذين يحتاجون بالقدر يؤدون الواجبات ويتهمون عن المرمات إلا أنهم يتركون الأسباب التي أمروا بها شرعاً، وهذا نقص عظيم، وقد تكون الأسباب واجبة وقد تكون مستحبة.

وهناك قسم خامس: يفعلون الواجبات لكن يتركون المستحبات، فهؤلاء يحصل لهم نقص عظيم ويقوتهم خير عظيم من الثواب ومن الأجر.

وهناك قسم سادس: يستغلون بما يحصل لأحدهم من بعض خوارق العادات إما مكاشفة أو استجابة دعاء فيشتغل بذلك عما أمر به من عبادة الله وشكره.

هذه أقسام الناس الذين يحتاجون بالقدر وبيئهم المؤلف رحمة الله، فقال: وأما قوله إذ يشهدون: هذا هو القسم الأول من شهد الحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية يسوون بين الأجناس المختلفة، يسوون بين المؤمنين وبين الكفار، وبين البرار وبين الفجاح، بل يسوون بين الله وبين الأصنام، بل يصل بهم الحال إلى أن يجعلوا وجوده واحد فيجعلون الخالق عين المخلوق، والمخلوق عين الخالق، والرب عين العبد، والعبد عين الرب، فلا يشهدون أنفسهم أنهم معبدون ولا عابدون، بل يشهدون أنفسهم هم المعبد وهم العابد وهو الرب وهو العبد وهو الخالق وهو المخلوق.

ومن هؤلاء الملاحدة رئيسهم محيي الدين ابن عربى، وابن سبعين

والغيف التلمساني وغيرهم، حتى يقول ابن عربي من أبياته المشهورة:

الرب عبد والعبد ربٌ يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبدا فذاك ميتا أو قلت ربيا أني يكلف

يقول ما الفرق بينهم؟ العبد هو الرب والرب هو العبد فأيهما المكلف، ومن كلماته يقول: ربًا مالك وعبدًا هالك وأنم ذلك، ويقول أيضًا: من أسماء الله الحسنى العلي ، ثم يقول على على ما ذا؟ وما سمي إله وعن ماذا وما هو إله، هكذا والعياذ بالله ، يقول إن كل شيء تراه في الوجود هو الله ، سر حيث شئت فإن الله ثم وقل ما شئت فيه فالواسع الله ، كل شيء تراه هو الله وهذا التعدد هو وحده ، هكذا يصل الحال بهؤلاء الذين يقولون بوحدة الوجود ، يقولون ما في رب ولا عبد ، أنت العبد وأنت الرب ، وأنت الخالق وأنت المخلوق ، فيقولون هذا وهذا وهم ، وهذه مظاهر لتجلي الحق ، الله تجلى بصورة معبد كما تجلى في صورة فرعون ، ويتجلى في صورة هادِ كما يتجلى في صورة الرسل ، وهؤلاء يقولون: كل من عبد شيئاً فهو على حق وعلى صواب ، فالذي يعبد الأصنام على حق ، والذي يعبد النار على حق ، والذي يعبد الأشجار على حق ، كل شيء يكون على حق والعياذ بالله ، والذي يخصص ويقول لا يعبد إلا شيئاً واحداً فهذا هو الكافر ، فعندهم الكفر في التخصيص ، يقولون الله واسع كل شيء ، وابن عربي له معارضات يعارض فيها القرآن الكريم وقصة قوم نوح ، وقصة قوم هود لهم معارضات ورموز نسأل الله السلامة والعافية ، حتى إنهم يقولون إن فرعون مصيب حين قال أنا ربكم الأعلى ، فهو على حق وعلى صواب ، وعباد الأصنام كذلك على صواب ، ويعللون غرق فرعون فيقولون: لأنه ظن أنه هو المعبد فقط أغرق حتى يزول هذا الحسبان ، ويقول كل الناس رب ، فأغرق حتى يزول هذا الحسبان ، حتى يزول هذا التوهم فأغرق وطهر

وهذا ليس بشهود الحقيقة، لا الكونية ولا الدينية، بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وجعلوا كل وصف مذموم ومدح نعماً للخالق والمخلوق، إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم.

وأما المؤمنون بالله ورسوله، عوامهم وخواصهم، الذين هم أهل القرآن، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَهْلِيْنَ مِنَ النَّاسِ».

قيل: من هم يا رسول الله؟

قال: «أَهْلُ الْقُرْآنِ، هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتِهِ»^(١).

فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء وملكيه وخالقه، وأن الخالق سبحانه مبادر للمخلوق. ليس هو حال فيه، ولا متعدد به، ولا وجوده وجوده.

فصار إغراءه تطهيراً له ليزول الحسبان والتورم الذي توهם أنه هو المعبد فقط، هكذا يقولون نعود بالله . وهذه هي الطائفة الأولى كما قال المؤلف رحمه الله ، الذين شهدوا الحقيقة الكونية يسوقون بين الخالق وبين المخلوق وبين العابد وبين المعبد يشهدون أنفسهم هي الحق، يعني هو الله .

وقوله وهذا ليس بشهود : هذا هو الذي عليه المؤمنون عوامهم وخواصهم، أي علماءهم وغير علمائهم هم أهل الله وأهل القرآن ، يفرقون بين الخالق والمخلوق ، ويقولون إن الخالق مبادر للمخلوق منفصلا عنه ، ليس الله تعالى حالا في شيء من مخلوقاته ، بل هو سبحانه وتعالى فوق العرش بعد أن تنتهي المخلوقات التي سقفها عرش الرحمن ، فالله سبحانه وتعالى فوق العرش لم يدخل في ذاته شيئاً من مخلوقاته ، ولا في مخلوقاته شيئاً من ذاته ، سبحانه

(١) أخرجه الطيالسي [٢١٣٤] وابن ماجه [٢١٥] وأحمد [٢٤٢/١٢٧] وأبو نعيم في الخلية [٤٦٣/٣] من طريق عبد الرحمن بن بُدْيل عن أبيه عن أنس .

والنصارى إنما كفراهم الله إذ قالوا بالحلول واتقادوا رب بال المسيح خاصة. فكيف من جعل ذلك عاماً في كل مخلوق؟

ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعة وطاعة رسوله، ونهى عن معصيته ومعصية رسوله، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضي لعباده الكفر، وأن على الخلق أن يبعدوه فيطيعوا أمره، ويستعينوا على كل ذلك كما قال في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومن عبادته وطاعته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الإمكاني، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق، فيجتهدون في إقامة دينه، مستعينين به، رافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات، دافعين بذلك ما قد يخالف من آثار ذلك، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل، ويدفع به الجوع المستقبل. وكذلك إذا آن أوان البرد، دفعه باللباس، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكره، كما قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله أرأيت أدوية تداوى بها، ورقى نسترقى بها، وتقي نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»^(١) وفي الحديث: «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان، فيتعلاجان بين السماء والأرض».

مباين منفصل عن المخلوقات، والمخلوقات تنتهي وسقفها عرش الرحمن، والله تعالى فوق العرش، هذا هو قول جميع الطوائف ما عدا هؤلاء الملاحدة نعوذ بالله.

وقوله ومن عبادته هذه الحال المؤمنين بالله يجاهدون أنفسهم في أداء الفرائض والانتهاء عن المحaram، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يحتجون بالقدر، وإن كان كل شيء مقدر، لكن يدفعون قدرأ بقدر، فإذا وقع شيء من المنكر وإن كان مقدراً فعليك أن تدفعه بقدر آخر وتزيله بالتسوية وبالنصححة وبتغيير المنكر، وهكذا. كما أن الإنسان مقدر عليه الجوع لكن هل

(١) رواه الترمذى ٢١٤٨، وابن ماجه ٣٤٣٧، والحاكم ١٩٩/٤، وأحمد ٤٢١/٣.

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله، العابدين لله، وكل ذلك من العبادة.
وهو لاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية - وهي ربوبيته تعالى لكل شيء ويجعلون ذلك
مانعاً من اتباع أمره الديني الشرعي على مراتب في الضلالة.
لفالاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً، فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون فيه الشريعة.

وقول هؤلاء شرمن قول اليهود والنصارى، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا آبَرْنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ شَيْءٍ﴾^(١) وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَدَنَا مِنْهُ﴾^(٢).

يستسلم للجوع أم يأكل؟ ، فالجوع مقدر والشبع مقدر والأكل مقدر، فأنتم
تدفعون قدر بقدر، والبرد مقدر، لكن هل تستسلم للبرد ولا تستدفىء؟ والجواب
أنك تستدفىء فهذا قدر وهذا قدر، وكذلك إذا وقعت المعصية لا تستسلم
للمعصية بل توب إلى الله، وكذلك إذا وجدت أحداً ي عمل المعصية فإنك تأمره
بالمعرفة وتنهاه عن المنكر، ولا تقل هذا مقدر وتسكت، فكل مقدر شيء
وبيده، كلاماً مقدراً كما في الحديث (إن الدعاء والبلاء لا يعتلجان)، والدعاء
مقدراً والبلاء مقدراً، كلاماً مقدراً، ومع ذلك أنت مأمور بالدعاء.

وقوله وهو لاء الذين يشهدون: وهو لاء في المرتبة الثانية بعد الاتحادية ، -
فالاتحادية يتتجاوزن الحقيقة الكونية فيجعلون أنفسهم هم الحاليون وهم
المخلوقون ، ثم يأتي هو لاء يشهدون الحقيقة الكونية ويحتجون بالقدر في كل
شيء يخالفون فيه الشريعة ، فهو لاء في المرتبة الثانية .

(١) سورة الأنعام : ١٤٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٢٠ .

وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضًا، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض. فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل، فلا بد إذا ظلمه ظالم، أو ظلم الناس ظالم، وسمى في الأرض بالفساد، وأخذ يسفك دماء الناس، ويستحل الفروج وبهلك الحرج والنسل ونحو ذلك من أنواع الضرر التي لا قوام للناس بها، أن يدفع هذا القدر وأن يعاقب الظالم بما يكفي عدوانه وعدوان أمثاله. فيقال له: إن كان القدر حجة، فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك: إن القدر حجة.

وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية، لا يطردون هذا القول ولا يتزمونه، وإنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عدد الطاعة قدرى، وعند المعصية جبى، أي مذهب والق هو أك تمذهب به.

وقوله وهؤلاء من أعظم: هؤلاء الذين يحتجون بالقدر في كل شيء متناقضون، ولا يستطيعون أن يحتجوا بالقدر في كل شيء، بل هم يحتجون به في أمور الدين، فإذا تركوا الواجبات احتجوا بالقدر، وإذا فعلوا المحرمات احتجوا بالقدر، لكن في أمور دنياهم لا يحتجون بالقدر، لو جاء إنسان وضربه لا يقول هذا مقدر ويستكت، بل يطالب بحقه، ولو جاء إنسان وأخذ ماله فإنه يطالب بحقه، ولا يسكت، ولو جاء إنسان وقطع عضوًا منه لا يسكت ولا يقول هذا مقدر، فيقال له لا تناقض إن كان القدر حجة فدع كل شيء يفعل بك وبغيرك، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك، فلماذا تتحجج به في أمور الدين ولا تتحجج به في أمور الدنيا؟! .

وقوله وأصحاب هذا القول: أي أنهم لا يطردون ولا يستمرون على مذهبهم يحتجون به في كل شيء، بل يحتجون به فيما يناسبهم ولا يحتجون به فيما لا يناسبهم، فإذا أراد أحدهم ترك الأوامر وفعل التواهي احتج بالقدر، وإذا أراد أن يطالب بحقوقه الدنيوية احتج به ، فصار متناقضًا.

ومنهم صنف يدعون التحقيق والعرفة، ويزعمون أن الأمر والنهي لازم من شهد لنفسه أفعالاً، وأثبتت له صفات. أما من شهد أن أفعاله مخلوقة، أو أنه مجبور على ذلك، وأن الله هو المتصرف فيه كما يحركسائر المتردّيات، فإنه يرتفع عنه الأمر والنهي، والوعد، والوعيد.

وقد يقولون: من شهد الإرادة سقط عنه التكليف. ويزعمون أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الإرادة.

وقوله و منهم صنف : هذا أصلهم الثالث ؛ وهو أنهم يقسمون الناس إلى قسمين : قسم عليهم التكاليف ، وقسم ليس عليهم التكاليف ، فالقسم الذي عليهم التكاليف هم القسم الذين أثروا أفعالاً لأنفسهم ، وهؤلاء يسمون أهل الشريعة ؛ عليهم أوامر وعليهم نواهي ، ويجب عليهم أن يتزموا بالشريعة ، والقسم الثاني الخاصة الذين لم يثروا لأنفسهم أفعالاً ولا صفات بل جعلوا أفعالهم هي أفعال الله وشهدوا إرادة الله ، يشهدون الإرادة يعني يشهدون إرادة الله الكونية فقط ، وينسون أنفسهم حتى إن صفاتهم يجعلونها من صفة الله ، فهؤلاء تسقط عنهم التكاليف ولا تكون عليهم تكاليف لا أوامر ولا نواهي ، يفعلون ما يشاون ، فهم يقسمون الناس إلى قسمين عامة وخاصة ، فالعامة يتزمون بالشريعة وخاصة لا يتزمون بل قد ارتفعوا وتجاوزوا الشريعة ، نسأل الله السلامة والعافية ، ومن اعتقاد هذا الاعتقاد فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً ، فليس هناك أحد يختص ، خاصة الناس هم الأنبياء والرسل وهم أكبر الناس توحيداً وإيماناً وتحقيقاً للعبودية الله عز وجل ، فمن زعم أن هناك أحد يسقط عنه التكليف وعقله ثابت معه ليس بصغير ولا مجنون ولا مخرف إلا الحائض والنفسي في سقوط الصلاة والصوم ، فمن اعتقاد أن أحداً يسقط عنه التكاليف فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً من قبل ولادة الأمور ، قال تعالى : **﴿وَأَعْبُدْ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي يأتيك الموت .**

فهؤلاء يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد، وأنه مريد ومدير لجميع الكائنات.

وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علمًا، وبين من يراه شهوداً، فلا يسقطون التكليف عنمن يؤمّن بذلك ويعلمه فقط، ولكن يسقطونه عنمن يشهده، فلا يرى لنفسه فعلًا أصلًا.

وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإلبات القدر مانعاً من التكليف على هذا الوجه.

وقد وقع في هذا طوائف من المتنسبين إلى التحقيق والمعرفة والتوحيد.

وبسبب ذلك: أنه صار نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافه. كما صار نطاق المعزولة ونحوهم من القدرة عن ذلك.

ثم المعزولة أثبتت الأمر والنهي الشرعيين دون القضاء والقدر، اللذين هما إرادة الله العامة

وقوله فهؤلاء يفرقون: أي يفرقون بين من يعلم فقط ومن يشهد، الذي يشهد لا يثبت لنفسه صفة بينما يجعل صفتة هي صفة الله ، فهذا يسقط عنه التكليف، أما الذي يعلم في نفسه وإنما يثبت لنفسه صفات وأفعال فهذا لا تسقط عنه التكاليف ، وهذا أيضًا قول بعض الصوفية .

وقوله وهؤلاء لا يجعلون: يقول المؤلف إن المعزولة أثبتوا الأمر والنهي الشرعيين لكن أنكروا عموم مشيئة الله وقدرته في الكائنات حتى تشمل أفعال العباد ، فقالوا إن أفعالهم لم يخلقها الله ، هم الذين خلقوها طاعات ومعاصي ، حتى إذا عذب الله الإنسان على المعاصي يكون عذبًا على أفعاله هو التي خلقها وأوجدها بنفسه . والله تعالى خالق كل شيء ، خالق العباد وخالق أفعالهم ، لكن المعزولة يقولون: العباد هم الذين خلقوا أفعالهم من دون الله طاعات ومعاصي . فالمعزولة أثبتوا الأمر والنهي ولم يثبتوا عموم الإرادة والمشيئة ، وأما الجبرية فأثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي .

وخلقه لأفعال العباد.

وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر، ونفوا الأمر والنهي في حق من شهد القدر، إذا لم يكن لهم نفي ذلك مطلقاً.

وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة.

لهذا لم يكن من السلف من هؤلاء أحد.

وهؤلاء يجعلون الأمر والنهي للمحظوظين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية.
ولهذا يجعلون من وصل إلى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهي، ويقولون: إنه صار من الخاصة.

وقوله وهؤلاء أثبتوا القضاء: أي يعني أن هؤلاء الجبرية ضد المعتزلة أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي، فقالوا الإنسان مجبر وعلى هذا فلا يكلف ولا يؤخذ بالمحرمات التي فعلها.

وقوله هؤلاء شر: وجه ذلك أن المعتزلة يعظمون الأمر والنهي يعظمون الشريعة بخلاف هؤلاء لأنهم لا يعظمون الأوامر والنواهي ولهذا صار قولهم شر من قول المعتزلة.

وقوله ولهذا لم يكن: هؤلاء الذين يحتاجون بالقدر يجعلون الأمر والنهي للمحظوظين الذين ما شهدوا الحقيقة الكونية فهوأله عليهم التكاليف، أما الخاصة الذين افتح لهم الباب وألغوا صفاتهم وجعلوها صفة لله تسقط عنهم التكاليف، فالناس قسمان: العامة، محظوظون عن شهود الإرادة فعليهم تكاليف، والخاصة غير محظوظين فتسقط عنهم التكاليف - نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله ولهذا يجعلون: صار من الخاصة وسقط عنه التكاليف ووصل إلى الله، ألغى صفاته وأفعاله وجعلها صفة لله، صار يشهد الإرادة الكونية، أما العامة الذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة فعليهم تكاليف.

وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١)، فاليقين عندهم، هو معرفة هذه الحقيقة.

وقول هؤلاء كفر صريح.

وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام، أن الأمر والنهي لا زمان لكل عبد ما دام عقله حاضراً إلى أن يموت، لا يسقطان عنه لا بشهوده القدر، ولا بغير ذلك.

وقوله ربما تأولوا: أي ربما استدلوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فهم يستدللون بما يناسبهم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ويفسرون اليقين بالعلم فمن وصل إلى العلم شهد الإرادة سقط عنده التكليف، أي اعبد ربك حتى تصل إلى اليقين، وحتى تصل إلى العلم وإلى شهود الإرادة، وعند ذلك انتهت العبادة فلا تبعد، وهذا من أبطل الباطل، وهو استدلال غير صحيح، وإنما المراد باليقين الموت، والمعنى استمر على عبادة ربك حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، لكن هؤلاء لهم تفسير باطل.

وقوله وقول هؤلاء كفر: نعم قول هؤلاء كفر صريح والسبب أنهم خالفوا النصوص التي فيها أن جميع الناس مكلفوون بعبادة الله، قال تعالى ﴿وَمَا خلقت الجن والإنس إلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ ولم يستثن منهم أحداً ولا قال إن هناك قسم لا يعبدونه وهم الذين وصلوا إلى الله وصاروا من الخاصة، فهو لاء قوله كفر صريح.

وقوله وإن وقع: هذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام يعلمه كل أحد أن الأمر والنهي والتکاليف لازمة لكل عبد ما دام العقل معه ثابت، فإذا فقد العقل

فمن لم يعرف ذلك عُرِّفَهُ وَبَيْنَ لَهُ، فَلَمْ أَصْرَ عَلَى اعْتِقَادِ سُقُوطِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَلَمْ يَقْتَلُ.
وَقَدْ كَثُرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ.

وَأَمَّا الْمُتَقْدِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ مَعْرُوفَةً فِيهِمْ.

وَهَذِهِ الْمَقَالَاتِ هِيَ مُحَادَّةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمُعَاوَدَةٌ لَهُ، وَصَدَّ عنِ سَبِيلِهِ، وَمُشَاقَّةٌ لَهُ، وَتَكْذِيبٌ
لِرَسُولِهِ، وَمُضَادَّةٌ لَهُ فِي حُكْمِهِ، وَإِنْ كَانَ مَنْ يَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ قَدْ يَجْهَلُ ذَلِكَ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا
الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، هُوَ طَرِيقُ الرَّسُولِ، وَطَرِيقُ أُولَيَّ الْأَئِمَّةِ الْحَقِيقِينَ.

فَهُوَ فِي ذَلِكَ بِعِزْلَةٍ مِنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُجْبَ عَلَيْهِ، لَا سَتْغَافَةَ عَنْهَا بِمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ
الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ، أَوْ أَنَّ الْخَمْرَ حَلَالٌ لَهُ، لِكُونِهِ مِنَ الْخَواصِ الَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ شُرُبُ الْخَمْرِ، أَوْ أَنَّ
الْفَاحِشَةَ حَلَالٌ لَهُ، لِأَنَّهُ صَارَ كَالْبَحْرِ لَا تَكُدُرُهُ الذَّنَوبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

سُقُوطُ التَّكْلِيفِ، وَإِذَا صَارَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ مَجْنُونًا أَوْ مُخْرِفًا لِكُبْرِ سَنَّهِ أَوْ صَغِيرًا مَا بَلَغَ،
فَهُذَا لَيْسَ عَلَيْهِ تَكْلِيفٌ، أَمَّا مَا دَامَ الْعُقْلُ مَعَهُ فَهُذَا لَا يَسْقُطُ عَنْهُ التَّكْلِيفُ، هَذَا
مَعْلُومٌ بِالْحُسْنَةِ مِنْ دِينِ إِلَهِ الْإِسْلَامِ، فَمَنْ قَالَ إِنْ أَحَدًا هُنْكَ يَسْقُطُ عَنْهُ التَّكْلِيفُ
يَسْتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ كَافِرًا مِنْ قَبْلِ وَلَاهُ الْأَمْوَارِ.

وَقَوْلُهُ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ : يَعْنِي يَقْتَلُ مِنْ قَبْلِ وَلَاهُ الْأَمْوَارِ يُرْفَعُ بِهِ إِلَى الْمَحْكَمَةِ
حَتَّى يَقْامَ عَلَيْهِ الْحُدُوْدُ فَلِيُسْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَقْتَلُهُ . تَكُونُ الْمُسْتَلَهُ فَوْضَى
كُلَّ مِنْ رَأَى أَحَدًا قَتَلَهُ، وَلَكِنَّ الْمَرَادُ أَنْ يَقْتَلُ مِنْ قَبْلِ وَلَاهُ الْأَمْوَارِ بَعْدَ أَنْ يُثْبَتَ
عَلَيْهِ الْحُكْمُ الشَّرِيعِيُّ، فَإِذَا ثُبِّتَ عَلَيْهِ هَذَا الْاعْتِقَادُ حُكْمُ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ وَيُقْتَلُ .

وَقَوْلُهُ وَقَدْ كَثُرَتْ : هَكَذَا يَزْعُمُ بَعْضُ الصَّوْفِيَّةِ، يَزْعُمُونَ الْعِرْفَةَ وَالْحَقَّ،
لَكُنْهُمْ هُمْ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ.

وَقَوْلُهُ فَهُوَ فِي ذَلِكَ : وَهَذِهِ اعْتِقَادَاتٌ فَاسِدَهُ، حِيثُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ قَسْمَهُمْ
تَسْقُطُ عَنْهُمُ التَّكَالِيفُ، وَهَذَا اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ بَلْ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، وَإِنْ كَانُوا لَا
يَعْلَمُونَ هَذَا .

ولا ريب أن المشركين الذين كذبوا الرسول يتزدرون بين البدعة والخالفة لشرع الله، وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفته أمر الله.

فهذه الأصناف فيها شبه من المشركين، لأنهم إما ابتدعوا، وإما أن يحجروا بالقدر، وإنما أن يجمعوا بين الأمرين، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحْشَأْتَهُمْ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١). وكما قال تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ الظَّاهِرُونَ أَشْرَكُوا لِوْلَيَ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الظَّاهِرُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِآسِنَةِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظُّنُونُ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَحْرُصُونَ﴾^(٢).

وقد ذكر عن المشركين ما ابتدعواه من الدين الذي فيه تحليل الحرام، وعبادة الله بما لم يشرع الله، في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ تَشَاءُ بِرَغْبَتِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْرَاءٌ عَلَيْهِ﴾^(٣) إلى آخر السورة.

وكذلك في سورة الأعراف في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ إلى قوله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحْشَأْتَهُمْ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

وقوله بهذه الأصناف: هذا كله من بدع المشركين ومن شريكياتهم، فكذلك هؤلاء يجمعون بين البدعة وبين الشرك فهم يشبهون المشركين الأولين. كذلك هؤلاء الصوفية الذين يحتجون بالقدر فيما يناسب أهواءهم.

(١) سورة الأعراف: ٢٨.

(٢) سورة الانعام: ١٤٨.

(٣) سورة الانعام: ١٣٨.

(٤) سورة الأعراف: ٢٦-٣٢.

وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع: حقيقة، كما يسمون ما يشهدون من القدر:
حقيقة.

وطرق الحقيقة عندهم: هو السلوك الذي لا يقييد صاحبه بأمر الشارع ونهيءه، ولكن بما
يراه ويذوقه، ويتجده في قلبه مع ما فيه من غفلة عن الله جل وعلا. ونحو ذلك.

وهؤلاء لا يحتاجون بالقدر مطلقاً. بل عمدتهم اتباع آرائهم وأهوائهم، وجعلهم لما يرون
وما يهرونه حقيقة. ويأمرنون باتباعها دون اتباع أمر الله ورسوله، نظير بدع أهل الكلام من
الجهمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنّة حقائق عقلية
يجب اعتقادها دون ما دلت عليه السمعيات.

ثم الكتاب والسنّة، إما أن يحرفوا القول فيما عن مواضعه، وإما أن يعرضوا عنه بالكلية،
فلا يتذربونه ولا يعقلونه، بل يقولون: نفرض معناه إلى الله. مع اعتقادهم نقىض مدلوله.

وإذا حق على هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسنّة، وجدت جهليات
واعتقادات فاسدة.

وقوله وهؤلاء قد يسمون: وهؤلاء هم أهل السلوك، كما يسمون أنفسهم
وهم الصوفية الذين بزعمهم أنهم يسرون إلى الله، لكن يسيرون على حسب
أدواتهم وما جدتهم وأهوائهم، ولا يتقيدون بالشرع . . .

وقوله وطرق الحقيقة: أي أن هؤلاء يشبهون الجهمية، من حيث إن الجهمية
 يجعلون ويستدعون من الأقوال المخالفة للكتاب والسنّة ومن الآراء ما يسمونها
 حقائق وقوانين عقلية وبراهين يقنية، وأمام نصوص الكتاب فيقولون هذه أدلة
 لفظية لا تفيد اليقين، فهم إما أن يحرفوها وإما أن يفوضوا معناها ويتمسكون
 بزعمهم بما دلت عليه العقول، والعقول متفاوتة متضاربة وهذا من جهلهم،
 وكذلك هؤلاء الصوفية يسمون ما تراه أنفسهم ذوقاً ووجداً ويسيرون بحسب
 أهوائهم وشهواتهم .

وكذلك أولئك إذا حق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله، الخالفة لكتاب والسنة، وجدت من الأهواء التي يتبعها أعداء الله لا أولياء.

وأصل ضلال من ضل، هو بتقديم قياسه على النص المنزّل من عند الله، وتقدیم اتباع الھوى على اتباع أمر الله.

فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد ويهواه. فكل محب له ذرق ووجد بحسب محبته وهواء.

فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد، مثل ما بينه النبي ﷺ بقوله في الحديث الصحيح:
 (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) ^(١).

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ريا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا) ^(٢).

وقوله وكذلك أولئك: أي أن هذا هو أصل الضلال؛ تقديم القياس على النص المنزّل من عند الله، وتقدیم الھوى على اتباع أمر الله، قال الله تعالى: «إِنَّمَا يُحَبُُ الظُّفَافُ الْمُنْسَكُونُ»، فهو لا يقدمون آراءهم، وأقيسهم وما تھواه نفوسهم وما يجدونه في نفوسهم من الآراء وما يزعمونه من العقليات على كتاب الله وسنة رسوله، وكذلك الصوفية يقدمون الذوق والوجد، وهذا هو أصل الضلال، فترك الكتاب والسنة وجعل بديل لها من الأهواء والأراء والبدع والأذواق والمواجيد والأقيسة والعقول.

(١) رواه البخاري ١٦، ٢٢١، ٤٠٦٤١، ومسلم ١٤٣.

(٢) رواه مسلم ٣٤.

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات، فكل بحسبه.

قيل لسفيان بن عيينة : ما بال أهل الأهواء لهم مجنة شديدة لأهواهم؟ فقال: أنسىت قوله تعالى: **﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾**^(١) أو نحو هذا من الكلام.

فعباد الأصنام يحبون آلهتهم كما قال تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لِّلَّهِ﴾**^(٢).

وقال : **﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلَّ مِنْ مَنْ أَنْتَبَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾**.

وقال: **﴿إِنْ يَتَبَعُونَ إِلَّا الضُّلُّ وَمَا تَهُوَ الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾**^(٣).

ولهذا ييل هؤلاء ويفرون بسماع الشعر والأصوات التي تهيج احبة المطلقة، التي لا تخص بأهل الإيمان، بل يشترك فيها محب الرحمن ومحب الأولان، ومحب الصليبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب المردان، ومحب السوان.

وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم ومواجideهم، من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة، وما

وقوله ما بال أهل الأهواء: أي الذين عبدوا العجل من بنى إسرائيل ، **﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾** أي أن حب العجل كان سبب كفرهم ، فعبدوا العجل الذي صنعه لهم السامری وهم ينظرون ثم قال هذا ربكم فاعبدوه - نسأل الله العافية - وذلك لما ذهب النبي الله موسى لملاقات الله عز وجل ، صنع لهم السامری هذا العجل من الخلق وهم ينظرون وأمرهم بالعبادة له فعبدوه ، قال تعالى: **﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾** يعني حب العجل بسبب كفرهم .

(١) سورة البقرة: ٩٣ .

(٢) سورة البقرة: ١٦٥ .

(٣) القصص: ٤٠ .

(٤) سورة النجم: ٢٣ .

كان عليه سلف الأمة.

فالمخالف لما بعث الله به رسوله من عبادته وحده، وطاعته وطاعة رسوله، لا يكون متابعاً للدين شرعاً الله أبداً، كما قال تعالى: **﴿فَلَمْ يَجْعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾** (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يَقْتُلُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَضُّهُمْ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ^(١).

بل يكون متابعاً لهواه بغير هدى من الله، قال تعالى: **﴿وَآمَّ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَّعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأَذِنْ بِهِ اللَّهُ﴾** (٢).

وهم في ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها: حقيقة، يقدمونها على ما شرعه الله. وتارة يتحجرون بالقدر الكوني على الشريعة، كما أخبر الله به عن المشركين كما تقدم.

ومن هؤلاء طائفة هم أعلامهم عندهم قدرأ، وهم مستمسكون بما اختاروا بهواهم من الدين في أداء الفرائض المشهورة، واجتياز الحرمات المشهورة.

وقوله مخالف : والشاهد أن الله تعالى أمرهم باتباع الشريعة ونهائهم عن اتباع الأهواء، وليس هناك إلا الشريعة أو اتباع الهوى، فإن لم يستجبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواههم، فكل ما خالف الشريعة فهو من الهوى، **﴿فَلَمْ يَجْعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**

وقوله بل يكون متابعاً : وهذه الطائفة الرابعة: يؤدون الفرائض وينتهون عن المحaram، لكن يغلطون في ترك الأسباب التي شرعاها الله، ويتركون الأسباب الشرعية، سواء كانت الأسباب دينية أو دنيوية وإن كانوا يؤدون الفرائض المشهورة ويفتنون المحرمات المشهورة، لكن قد يتركون بعض الواجبات غير

(١) سورة الجاثية : ١٨ - ١٩ .

(٢) سورة الشورى : ٢١ .

لكن يضلون بترك ما أمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظالمن أن المارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك، مثل من يجعل التوكيل منهم أو الدعاء منهم ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة بناء على أن من شهد القدر علم أن ما قدر سيكون، فلا حاجة إلى ذلك.

وهذا ضلال مبين، وغلط عظيم.

فإن الله قدر الأشياء بأسبابها.

المشهورة، ولا يتزكون بعض المحرمات غير المشهورة، ويتركون ما أمروا به من الأسباب الشرعية، فمثلاً الإنسان مأمور بأن يؤدي الفرائض وأن يتهمي عن المحaram وهذا سبب شرعي في دخول الجنة، وتوحيد الله وإخلاص الدين لله والانتهاء عن المحaram، كذلك الأسباب الدنيوية، فالإنسان يطلب الرزق يبيع ويشتري يحرث ويبذر يزرع وغير ذلك من الأسباب الشرعية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الأقارب والماليك والبهائم والجيران إلى غير ذلك من الأسباب الشرعية، هؤلاء قد يتزكون بعض الأسباب الشرعية سواء كانت دينية أو دنيوية، وهؤلاء هم الطائفة الرابعة.

وقوله يضلون: يزغمون أن من شهد القدر وشهد الإرادة فلا حاجة به إلى فعل الأسباب.

وقوله فإن الله: والله تعالى ربط المسببات بأسبابها، سواء كانت دينية أو دنيوية، فربط الله تعالى الآخرة والدنيا كلها بالأسباب، فالجنة مربوطة بالأسباب منها العمل الصالح، والنار مربوطة بالأسباب ومنها العمل السيء، والدنيا مربوطة بالأسباب، فيزرع الإنسان والزرع مربوطة بالأسباب، فالإنسان يدر ويغرس ويستقي الماء فيحصد، كذلك الجوع لا يزول إلا بالأكل وهذا سبب، والعطش لا يزول إلا بالشرب، والبرد لا يزول إلا بالاستدفاف وهذا كل شيء مربوطة بالأسباب فالله تعالى ربط المسببات بأسبابها دينية وأخرية.

كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابهما، كما قال النبي ﷺ: (إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، ويعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، ويعمل أهل النار يعملون) ^(١).

وكما قال النبي ﷺ لما أخبرهم: بأن الله كتب المقادير، فقالوا: يا رسول الله! أفلأ ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ فقال: (لا، اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيسر لعمل أهل الشقاوة) ^(٢).

فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة.

والتوكل مقرون بالعبادة، كما في قوله تعالى: «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» ^(٣).

وفي قوله: «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ» ^(٤).

وقول شعيب عليه السلام: «عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبٌ» ^(٥).

ومنهم طائفة قد ترك المستحبات من الأفعال دون الواجبات، فستقص بقدر ذلك.

وقوله ومنهم طائفة ترك: وهذه الطائفة الخامسة وهي التي ترك المستحبات دون الواجبات، وهؤلاء ما عليهم شيء لأنهم أدوا الواجبات لكن فاتهم وحصل عليهم نقص عظيم، فاتهم الشواب والأجر المترتب على فعل المستحبات، فهؤلاء من حرمانهم فعلوا الواجبات لكن تركوا المستحبات فحرموا أجراها.

(١) رواه مسلم [٢٦٦٢].

(٢) رواه البخاري [١٣٦٢]، [٤٩٤٥]، [٤٩٤٦]، رواه مسلم [٢٦٤٧].

(٣) سورة هود : ١٢٣.

(٤) سورة الرعد : ٣٠.

(٥) سورة هود : ٨٨.

ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة، مثل مكاشفة أو استجابة دعوة مخالفة للعادة، ونحو ذلك، فيشتغل أحدهم بهذه الأمور عما أمر به من العبادة والشكر ونحو ذلك. فهذه الأمور، ونحوها كثيراً ما تعرض لأهل السلوك والتوجه، وإنما ينجو العبد منها بلازمته أمر الله الذي بعث به رسوله، في كل وقت.

كما قال الزهرى:

كان من مضى من سلفنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة.
وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق^(١).
والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان: أحدهما: أن لا يبعد إلا الله.
الثاني: أن لا يبعده إلا بما أمر وشرع، لا يبعده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع.

وقوله ومنهم طائفة: وهذه الطائفة السادسة وهم الذين يستغلون بما يحصل لهم من خرق العادات عن عبادة الله وشكريه، فإذا حصل لأحدهم أن اجتبيت دعوته أو كشف له عن شيء أو ما أشبه ذلك اشتغل بذلك عن عبادة الله وشكريه.
وقوله فهذه الأمور: هذا هو سبب النجاة؛ ملازمة أمر الله الذي بعث الله به رسالته، فإذا أردت النجاة فاللزم أمر الله وأمر رسوله، وأخلص العبادة لله، أدى الفرائض لله، والزم أمر الله وأمر رسوله، فهذا سبيل النجاة، فالشريعة هي سفينة الرحمن من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، ومن عمل بالشريعة فقد ركب السفينة، ومن ترك الشريعة لم يركب السفينة فلا شك غرق، إذاً طريق النجاة: لزوم أمر الله وأمر رسوله عليه السلام.

وقوله أن العبادة والطاعة: هذا أصلان لابد منهما في العبادة، لا تصح

(١) انظر مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص ١٢٩.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ إِنَّ رَبَّهُ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَأَتَخَذَ اللَّهَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(٣).

ال العبادة إلا بهذين الأصلين، الأصل الأول: لا يعبد إلا الله، وهذا معنى شهادة إلا إله إلا الله، والأصل الثاني: أن يعبد الله بما شرعه وبما أمر به لا بالبدع والآهواء، وهذا هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله، فإذا تخلى أحد هذين الأصلين ما صحت العبادة، لا يعبد إلا الله، وأن يعبد الله بما شرع لا بالآهواء والبدع، فال الأول هو تحقيق شهادة إلا إله إلا الله، والأصل الثاني هو تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.

قوله فمن كان يرجو: فالآلية فيها الأصلان: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ هذا هو الأصل الثاني، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هذا هو الأصل الأول.

قوله بلى من أسلم: إسلام الوجه هو إخلاص الدين لوجه الله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: إحسان العمل وإنقاذه وأن يكون العمل موافقاً للشريعة.

قوله ومن أحسن ديناً: فمن أسلم لله، هذا هو الأصل الأول، وهو محسن هذا هو الأصل الثاني.

(١) سورة الكهف: آية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: ١١٢.

(٣) سورة النساء: ١٢٥.

فالعمل الصالح: هو الإحسان وهو فعل الحسنات، والحسنات: هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب، ولا في صحيح السنة، فإنها - وإن قالها من قالها، وعمل بها من عمل - ليست مشروعة، فإن الله لا يحبها ولا رسوله، فلأن تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح. كما أن من يعمل ما لا يجوز، كالفواحش والظلم ليست من الحسنات ولا من العمل الصالح.

وأما قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١). قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾^(٢). فهو إخلاص الدين لله وحده.

وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم اجعل عملي كلها صالحة، واجعله لوجهك خالصاً، ولا يجعل لأحد فيه شيئاً.

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَلْوَكُمْ أَيُّكُمْ أَخْسَنُ عَمَلًا﴾^(٣). قال: أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله. والصواب: أن يكون على السنة.

وقوله فالعمل الصالح إلى قوله ولا يشرك: المقصود بها: إخلاص الدين لله وحده.

وقوله وكان عمر: وهذا فيه تحقيق الأصلين؛ اللهم اجعل عملي كلها صالحة هذا الأصل الثاني، واجعله لك خالصاً هذا هو الأصل الأول.

وقوله قال الفضيل: وهذا أيضاً الأصلان: الخالص الأصل الأول، والصواب هو الأصل الثاني.

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) النساء: ١٢٥.

(٣) سورة الملك: ٢.

فإن قيل: فلماذا كان جميع ما يحبه الله داخلاً في اسم العبادة فلماذا عطف عليها غيرها؟
كتقوله في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله لنبيه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(١).
وقول نوح: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(٢) وكذلك قول غيره من الرسل؟.

قيل: هذا له نظائر كما في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْنَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٣).
وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعْنَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤). وإيتاء ذي القربي: هو من العدل والإحسان،
كما أن الفحشاء والبغى من المنكر.

وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(٥)، وإقامة الصلاة من
أعظم التمسك بالكتاب.

وكذلك قوله عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَذْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا﴾^(٦).
ودعاؤهم رغباً ورهباً من الخيرات. وأمثال ذلك في القرآن كثير.

وقوله فإن قيل: يقول: إذا كان جميع ما يطلبه الله داخلاً في العبادة فلماذا
يعطف بعض الواجبات وبعض المستحبات على العبادة كما مر في قوله: ﴿إِيَّاكَ
نَعْبُدُ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، عطف الإسلام على العبادة مع أن الإسلام مبني على
العبادة. أجاب المؤلف رحمة الله بأجوبة فقال: إن هذا يجاب عنه، بأنه حينما
يعطف عليه فإما بذلك لبيان أهميته، فيكون خصه لبيان أهميته، أو لأنه إذا لم
يعطف عليه يكون ليس داخلاً، أما إذا عطف عليه لا يكون داخلاً كالفقير
والمسكين، الفقر إذا أفرد دخل فيه المسكين، والمسكين إذا أفرد دخل فيه الفقر،
وإذا اجتمعا صار الفقر أشد حاجة.

(١) سورة هود: ١٢٣.

(٢) سورة نوح: ٣.

(٤) سورة النحل: ٩٠.

(٥) سورة الأعراف: ١٧٠.

(٦) سورة الأنبياء: ٩٠.

(٣) العنكبوت: ٤٥.

وهذا الباب: يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر، لكونه مطلوباً بالمعنى العام، والمعنى الخاص.

وتارة تتبع دلالة الاسم بحال الانفراد والاقتران، فإذا أفرد عم، وإذا قرن بغيره خص، كاسمه: «الفقير» و «المسكين» لما أفرد أحدهما في مثل قوله: ﴿للّفَقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَبُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَهُم﴾^(١). وقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِين﴾^(٢). دخل فيه الآخر.

ولما قرن بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين﴾^(٣). صارا نوعين.

وقد قيل: إن الخاص المعطوف على العام، لا يدخل في العام حال الاقتران، بل يكون من هذا الباب. والتحقيق أن هذا ليس لازماً.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرَسُلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾^(٤).

وقوله وهذا الباب: يعني يكون مطلوب مرتين، مرة بالمعنى العام ومرة بالمعنى الخاص على هذا القول.

وقوله من كان عدواً: فعطفت جبريل وميكال على الملائكة وهم من الملائكة.

(١) سورة البقرة: ٢٧٣.

(٢) سورة المائدة: ٨٩.

(٣) سورة التوبة: ٦٠.

(٤) البقرة: ٩٨.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِنَاقِهِمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(١).

وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متعدة.

تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام، كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وتارة لكون العام في إطلاق قد لا يفهم منه العموم، كما في قوله: ﴿هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**^(٣) **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ**^(٤)، فقوله: **﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾**. يتاول كل الغيب الذي يجب الإيمان به، لكن فيه إجمال. فليس فيه دلالة على أن من الغيب: ما أنزل إليك وما أنزل قبلك.

وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون باخبر به، وهو الغيب وبالاخبار بالغيب، وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

ومن هذا الباب: قوله تعالى: **﴿أَتَلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾**^(٥). وقوله: **﴿وَالَّذِينَ يَسْكُنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾**^(٦).

وتلاوة الكتاب: هي اتباعه والعمل به، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَلَوَهُ حَقَّ تِلَوَتِهِ﴾**^(٧).

* فالتلاء تنقسم إلى قسمين: تلاوة يعني العمل، وتلاوة يعني القراءة، والمراد بالأية هنا تلاوته أي اتباعه والعمل به.

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) البقرة: ٣ - ٤.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٠.

(٥) سورة البقرة: ١٢١.

قال: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويؤمنون بتشابهه، ويعملون بمحكمه^(١).

فتابع الكتاب: يتاول الصلاة وغيرها، لكن خصها بالذكر لمزيدتها.

وكذلك قوله موسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢). وإقامة الصلاة لذكره: من أجل عادته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٣).

وقوله: ﴿أَتَقُولُوا إِلَهٌ وَآتَيْتُهُ الْوَسِيلَةَ﴾^(٤).

وقوله: ﴿أَتَقُولُوا إِلَهٌ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥).

فإن هذه الأمور هي أيضًا من تمام تقوى الله. وكذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(٦).

فإن التوكل هو الاستعانة، وهي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر، ليقصدها المعبد بخصوصها. فإنهما يعنون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته.

إذا بين هذا فكمال الخلق: في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته.

وقوله قال يحلون حلاله: وهذا شامل لكل مخلوق، فكل مخلوق كماله في العبودية علماً حق العبودية كمل عند الله وازداد قريباً منه، وإذا نقصت عبوديته نقص كماله ونقص قريبه من الله، وهذا شامل للأنباء والرسل والملائكة والجن والإنس، كل ما حق المخلوق العبودية كل ما كان أقرب إلى الله وازداد درجة وعلواً من الله، وإذا ضعف تحقيقه للعبودية بعد من الله ونزلت درجته ومرتبته عند الله.

(١) أخرجه بن جرير في (جامع البيان) (٢/٥١٩) وعبد الرزاق في تفسيره (١/٥٦).

(٢) سورة طه: ١٤.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠.

(٤) سورة المائدah: ٣٥.

(٥) سورة التوبah: ١١٩.

(٦) سورة هود: ١٢٣.

ومن توهם أن الخلق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق، بل من أضلهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكَرَّمُونَ ﴾٢٦﴾ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشِّيَّةِ مُشْفِقُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾٨٨﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾٨٩﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا ﴾٩٠﴿ أَنْ دَعَوْنَا لِرَحْمَنِ وَلَدًا ﴾٩١﴿ وَمَا يَنْسَفِي لِرَحْمَنِ أَنْ يَتَخَذَ وَلَدًا ﴾٩٢﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَيْتِ الرَّحْمَنَ عَبْدًا ﴾٩٣﴿ لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَهُمْ عَدًّا ﴾٩٤﴿ وَكُلُّهُمْ آتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرِدًا﴾^(٢).

وقال تعالى: في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِ إِسْرَائِيلَ﴾^(٣).

وقوله ومن توهם: والشاهد قوله ﴿إِلَّا آتَيْتِ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ فكل من في السموات والأرض يأتي يوم القيمة عبداً، وما هناك أحد يخلو من عبودية، وقد سرد المؤلف آيات كثيرة ليبين أن ليس هناك أحد يخلو من العبودية وأن الله وصف أكابر المخلوقات بالعبادة.

وقوله في المسيح: وصف عليه السلام بالعبودية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ وهو نبي كريم مع ذلك لا يخرج عن العبودية.

(١) سورة الأنبياء: ٢٦-٢٨.

(٢) سورة مرثى: ٨٨-٩٥.

(٣) سورة الزخرف: ٥٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَخْشَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (٢٧) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفَّىْهُمْ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذَّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ إِذْ عَنِّي أَسْتَجِبُ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٣).

وقوله تعالى وله من في السموات: من عنده هم الملائكة وصفهم الله بالعبادة وأنهم لا يستنكرون عن العبادة.

وقوله لن يستنكف: أي ليس أحد يستنكف عن العبادة لا المسيح ولا الملائكة، فكلهم عباد الله، بل إنهم يعبدون الله وتطمئن نفوسهم إلى ذلك ويرتاحون ويتلذذون بالعبودية لله، ولا يستنكفون عن عبادة الله مع شرفهم وكمالهم. وما شرفوا وما كملوا إلا بتحقيق العبودية لله.

وقوله ومن يستنكف: هذا وعيد لمن استكبر عن عبادة الله بأنه يعذب بالعذاب الأليم.

وقوله وقال ربكم: هذا وعيد للمستكرين عن عبادة الله بأنهم سيدخلون جهنم داخرين أي أذلة صاغرين.

(١) سورة الأنبياء : ١٩ - ٢٠ .

(٢) سورة النساء : ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) سورة المؤمنون : ٦٠ .

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلنَّقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقُوهُ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا بِعَبْدِنَ (٢٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَأُولَئِنَّ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾^(١)

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ كُرِّرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالْغَدْرِ وَالْآَصَابِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاغِلِينَ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾^(٢)

وهذا ونحوه - مما فيه وصف أكابر الخلق بالعبادة، وذم من خرج عن ذلك - متعدد في القرآن، وقد أخبر أنه أرسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣).

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤). وقال تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَلِيَأْمِي فَاعْبُدُونِ﴾^(٥). ﴿وَرَأَيْتَ فَأَتَقُونَ﴾^(٦).

قوله ومن آياته: والشاهد وصف الملائكة بالعبادة ﴿فَأُولَئِنَّ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة.

قوله واذكر ربك: والشاهد أمر رسوله بالعبادة ووصف الملائكة بالعبادة.
قوله وهذا ونحوه: فأرسل الله الرسل تأمر الناس بعبادته وتوحيده وطاعته.

(١) سورة فصلت : ٣٧-٣٨.

(٢) سورة الأعراف : ٢٠٥-٢٠٦.

(٣) سورة الأنبياء : ٢٥.

(٤) سورة النحل : ٣٦.

(٥) سورة العنكبوت : ٥٦.

(٦) سورة البقرة : ٤١.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَفَقَّهُونَ﴾^(١).

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةِ وَالإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(٣) وَأَمِرْتُ لَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ^(٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ^(٥) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي^(٦) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾^(٧).

وكل رسول من الرسل الفتح دعوه بالدعاء إلى عبادة الله: كقول نوح ومن بعده عليهم السلام في سورة الشعراء وغيرها: ﴿يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٨).

وقال: ﴿قَالَ فَبِمَزْكُورِكَ لَا غُوَامِسٌ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(١٠). قال في حق يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ لِتُصْرِفَ عَنَّهُ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١١).

وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١٢) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾^(١٣).

وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١٤) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّنَّهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(١٥).

وقوله يا أيها الناس: هذا أمر بالعبادة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، وفي قوله ﴿فَإِيَّاهُ فَاعْبُدُونِ﴾ أمر للمؤمنين بالعبادة.

وقوله: وما خلقت الجن: وهنا بين الله أنه خلق الجن والإنس لعبادته.

وقوله: قل إني أمرت: وهذا رسول الله أكمل الخلق مأمور بعبادة الله.

وقوله وكل رسول: فكلنبي كان يأمر قومه بعبادة الله وتوحيده.

وقوله كذلك لنصرف عنك: صرف الله السوء عن يوسف بسبب إخلاصه لله عز وجل والشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين.

(١) البقرة: ٢١.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) سورة الزمر: ١١-١٥.

(٤) سورة المؤمنون: ٢٣.

(٥) سورة ص: ٨٢-٨٣.

(٦) سورة يوسف: ٢٤.

(٧) سورة الصافات: ٩٩-١٥٩.

(٨) سورة التحليل: ٩٩-١٦٠.

وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه كما في قوله: ﴿وَإِذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَوْلَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِ الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لِمِنَ الْمُصْطَفَينَ الْأَخْيَارِ﴾ (١).

وقوله: ﴿وَإِذْكُرْ عَبْدَنَا دَارُودَ دَائِيدَ إِنَّهُ أَوْابٌ﴾ (٢) وقال عن سليمان: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوْابٌ﴾ (٣) وعن أليوب: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ﴾ (٤).

وقال عنه: ﴿وَإِذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ (٥). وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ذَرْيَةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحَ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٦). وقال عن خاتم رسالته: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعِنْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ (٧). وهو أولى القبلتين، وقد خصه الله

وقوله وبالعبودية: كل من اصطفاه الله من الأنبياء والرسل نعته الله بالعبودية، فلا يخرج عن العبودية، كمانعت إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب وداود وسلمان وأليوب ونوح ونبينا محمد ﷺ في المقامات العظيمة كلهم نعتهم الله بالعبودية، فلا أحد يخرج عنها.

وقوله: ﴿وَإِذْكُرْ عَبْدَنَا دَارُودَ﴾ إلى قوله ﴿وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾: كل هذا

(١) سورة ص: ٤٥ - ٤٧ .

(٢) سورة ص: ١٧ .

(٣) سورة ص: ٣٠ .

(٤) سورة ص: ٤٤ .

(٥) سورة ص: ٤١ .

(٦) سورة الإسراء: ٣ .

(٧) سورة الإسراء: ١ .

بأن جعل العبادة فيه بخمسة ضعف^(١). وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾^(٢). وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِمَّا نَرَأَيْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾^(٣). وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٤). وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوَانًا﴾^(٥). ومثل هذا كثير متعدد في القرآن.

وصف الله تعالى نبينا داود وسليمان وأيوب ونوحًا بالعبودية له، وهكذا وصف نبينا محمد ﷺ بالعبودية في مقام الإسراء وهو مقام عظيم، ووصف أيضًا نبيه بالعبودية في مقام الدعوة.

وقوله و﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾: فوصف نبيه بالعبودية في وقت الإنزال وقال : (فأوحى إلى عبد ما أوحى). كذلك وصف نبيه بالعبودية في مقام الإيحاء ووصف هنا الأبرار بالعبودية وغير ذلك كثير.

(١) رواه البزار في مسنده (٤٢٢) وابن عبد البر في التمهيد (٦ / ٣٠) والطحاوي في مشكل الآثار (١ / ٢٤٨). انظر العبردية تعليق الشيخ علي حسن عبد الحميد ص ٩٩.

(٢) سورة الجن : آية ١٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢٣ .

(٤) سورة الإنسان : ٦ .

(٥) سورة الفرقان : ٦٣ .

خلاصة الباب السابق

وهي أن تفاوت الناس تفاوتاً عظيماً في باب العبودية لله عز وجل ، وهو تفاوتهم في حقيقة الإيمان . ولذلك كانت ربوبية الله تعالى لعباده فيها عموم وخصوص . ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على صخرة سوداء في ظلمة الليل . والعبودية هي عبودية القلب فمتن استعبد القلب لشيء كان عبداً له ، فإذا كان القلب متبعداً لله فهو عبداً لله ، وإذا كان متبعداً لغيره فهو عبداً لغيره . فإن العبودية عبودية قلب ولو كان الجسد مأسوراً أو مسجوناً والقلب مرتاح فإنه لا يضره هذا السجن ، وإذا كان القلب معبداً لغير الله ولو كان حراً طليقاً فإنه عبد ، فال العبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى النفس .

وعبودية العبد لربه تستلزم موافقته لله في محبوبياته ومسخوطاته ، فولي الله عبد الله على الحقيقة ، وهو الذي يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ويبغض ما يبغضه الله ويواли من والى الله ويعادي من يعادى الله ويحب من أحبه الله ، ويبغض من أبغضه الله ويعطى لله وينع لله ، فيكون دينه كله لله . ومحبته لمحبوب الله عز وجل ، فمحبة محبوب المحبوب من محبة المحبوب ، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح « ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » و«أن يحب المرء لا يحبه إلا لله» هذا من تمام محبة الله عز وجل . والعبد فقير بالذات إلى الله عز وجل من جهتين :

- من جهة العبادة ، وهي العلة الغائية ، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية . ودين الإسلام مبني على الاستسلام لله وحده ، فمن لم يستسلم لله ولم ينقاد له ليس مسلماً ، ومن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك ، ومن لم

فصل في التفاضل بالإيمان

إذا تبين ذلك، فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيماً، وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان.

وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص، ولهذا كانت ربوية الرب لهم فيها عموم وخصوص.
ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل وفي «الصحيف» عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقض. إن أعطي رضي، وإن منع سخط»^(١).

يستسلم لله فهو مستكبر، والشرك والمستكبر كل منهم كافر.

فعلى ذلك يكون الناس ثلاثة أقسام؛ قسم استسلم لله فقط مع إخلاص الدين له عز وجل والإيمان به وبرسوله، وهذا هو المؤمن حقاً.

وقسم استسلم لله في الظاهر لكنه ليس مؤمن في الباطن وهؤلاء المنافقين.
وقسم استسلم لله ولغير الله فهو مشرك، وقسم استكبر على الله ولم يستسلم
له فهو مستكبر مثل فرعون وإبليس ومن على شاكلتهم فهم مستكبرون عن
عبادة الله لم يستسلموا، والمنافقين مستسلمون لله في الظاهر لكنهم غير مؤمنين
في الباطن فيكونون كفراً. والشرك المستسلمون لله والمستسلمون لغير الله
مشركون. والمؤمن مستسلم لله وحده فقط ولا يستسلم لغيره، وهو مؤمن في
الباطن والظاهر. يقول المؤلف رحمة الله :

وقوله وإذا تبين ذلك: أي أنهم في باب العبودية لله يتفاضلون تفاضلاً عظيماً، وهذا يعني أنهم يتفاضلون في الإيمان بالله ورسوله، وهذا هو تفاضلهم في عبودية الله.

وقوله وهم ينقسمون: لكون قلبه متبعد لهذه الأشياء، لكونه يسخط من أجل الدرهم ويرضى من أجل الدرهم. والقطيفة والخمصة أنواع من الأقمشة

(١) رواه البخاري : ٦٤٣٥ عن أبي هريرة.

فسماء النبي ﷺ: عبد الدرهم، عبد الدينار، عبد القطيفة، عبد الخميسة، وذكر ما فيه دعاء وخبرًا.

وهو قوله: «تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»

والنقش هو إخراج الشوكة من الرجل، والمناقش: ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس. فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط. كما قال تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أَعْطُوكُمْ مِنْهَا رَضْوًا وَإِنْ لَمْ يَعْطُوكُمْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ»^(١) فرضاهם لغير الله وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو ب بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط. فهذا عبد ما يهراه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة: هي رق القلب وعبادته، فما استرق القلب واستعبده فالقلب عبده.

ولهذا يقال:

العبد حر ما قمع

والحر عبد ما طمع

ما لها خمل وزرع من البسط ، والمعنى أنه متبع لهذه الأشياء؛ صار قلبه متبع لهذه الأشياء؛ صار قلبه متبع لكون يرضى لها ويغضب لها ويستخط من أجلها، ولهذا قال : « وإن أعطي رضي وإن منع سخط» .

وقوله وقد وصف : هذا في المنافقين ، أي أن عبد الدينار وعبد الدرهم قد شابه المنافقين في كونه يغضب من أجل الدنيا ، ويرضى من أجل الدنيا .

وقوله وهكذا حال : لأن العبودية عبودية القلب ، فالعبد المملوك لسيده حر ما دام قانعاً ، وهذا يشمل المملوك وغير المملوك فما دام قنوعاً راضياً بما قسمه

(١) سورة التوبه : ٥٨ .

وقال القائل:

أطعْتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قفت لكتت حراً

ويقال: الطمع غل في العنق، وقيد في الرجل، فإذا زال الفل من العنق: زال القيد من الرجل.

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: الطمع فقر، واليأس غنى، وإن

الله له فإنه حر حتى ولو كان مسترقاً. والحر لو كان حرّاً طليقاً يتصرف فهو عبدٌ ما طمع، فإذا طمع فهو عبدٌ، فما دام المرء في قلبه الطمع فهو عبدٌ ولو كان حرّاً طليقاً، والعبد حرٌ ولو كان مقيداً، لأن العبودية عبودية القلب، والحرية هي حرية القلب في الحقيقة، وهذا الشيء يجده الإنسان واقعاً مشاهداً، تجد بعض الناس الآن ليس بمستريحٍ، عنده أموال كثيرة لكن قلبه غير مستريحٍ، تجده مشغولاً في ليته ونهاره وفي يقظته وفي منامه مشغول بجمع المال، يجمعه من حلال وحرام ولا يبالي، وتتجده لا يستريح بين أولاده ولا فيأكله ولا في شربه لأن قلبه مسترق للمال، وبعض الناس جعل الله غناه في قلبه وأعطاه القناعة، فتجده مستريحاً ولو كان ماله قليلاً.

وقوله قال القائل: هكذا الطمع غل بضم الغين، وهو ما يكون في العنق، أما الغل بكسر الغين فهو الحسد والحدق الذي يكون في الصدر، قال تعالى: «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين»، فهذا يختلف منه المعنى بالضم والكسر، إذ كسرت الغين صار المراد به الغل الذي في الصدر، وإذا ضمت الغين غل صار القيد الذي يكون في الرقبة، قال تعالى: «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً» فالاغلال هنا جمع غلٌ، «إنا أعدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً» والأغلال هي القيود التي يجررون بها في أعناقهم، يسحبون

أحدكم إذا يئسى من شيء استغنى عنه.

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي يأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله.

وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيراً إلى حصوله وإلى من يظن أنه مسبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك.

قال الله عز وجل : **﴿فَابتَغُواْ عِنْدَ اللّٰهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُواْ لَهُ إِلٰهَ تُرْجَعُونَ﴾**^(١).

فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك.

فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله، فقيراً إليه.

وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق محمرة في الأصل، وإنما أحيثت للضرورة.

في الحميم ثم في النار يسجرون، المقصود أن الغل بضم الغين هو الغل الحسي وهو الوثاق الذي يكون في الرقبة، من حبل وغيره، أما الغل بكسر الغين فهو الحقد الذي يكون في الصدر وفي القلب.

وقوله وهذا أمر : وما ذاك إلا لأن مسألة المخلوق فيها ميل الإنسان بقلبه إلى المخلوق ويحتاج إليه فيكون قلبه متبعذل ذلك المخلوق ، فصارت مسألة المخلوق لا تجوز إلا للضرورة ، ولهذا جاء في الحديث المنع من سؤال الناس المال ، وأن من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً ، ومن سأل الناس جاءت مسألته كودشاً في وجهه يوم القيمة ، وفي الحديث الآخر : لا يزال الرجل يسأل حتى يأتي يوم القيمة وهو ليس في وجهه مزعة لحم ، وفي حديث قبيس الذي قال إن النبي ﷺ

وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في «الصحاب» و«السنن» و«المسانيد».

كقوله عليه السلام : (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيمة وليس في وجهه مزعة من لحم) ^(١).

وقوله : (من سأله الناس ولو ما يغنى به جاءت مسألته يوم القيمة خدوساً - أو خموشاً - أو كدوشاً - في وجهه) ^(٢).

وقوله : (لا تخل المسألة إلا لذي غرم مفague، أو دم موجع، أو فقر مدقع) ^(٣).

قال : (لا تخل المسألة إلا لثلاثة : رجل تحمل حمالة فيسأل حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتى يصيب قواداً من عشه وسداداً من عشه ثم يمسك ، ورجل أصابته فاقة يعني فقرًا شديداً حتى يقوم ثلاثة من ذي الجحا يعني من قومه من ذوي العقول لقد أصابت فلاناً فاقة فيسأل حتى يصيب قواماً أو قال سداداً من عيش ، ثم قال : وما سوى ذلك فهو سحت يأكلها صاحبها سحتاً ، وكذلك سؤال الناس غير المال ، الأولى لا تسأل كما سيبين المؤلف رحمة الله ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بايع بعض الصحابة على لا يسألوا الناس شيئاً مطلقاً ، فكان الواحد منهم إذا سقط سوطه وهو على دابته ينزل ويأخذ السوط ولا يقول يا فلان ناولني إيه حتى كي لا يحتاج إلى أحد ، ولكن تجد بعض الناس إذا كان كبير السن يتعب من بجواره يقول انت لي بكتنا ، اعطيك هذا ، ما ينبغي أن يكثر الإنسان من الأسئلة ، كل ما أمكن الإنسان الاستغناء عن الناس فهو أولى .

(١) رواه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠).

(٢) رواه أبو داود (١٦٢٦) والنسائي (٥/٩٧) والترمذى (٦٥٠).

(٣) رواه أحمد (٣/١١٤/١٢٦) وأبو داود (٦٤١).

وهذا المعنى في «ال الصحيح »، وفيه أيضًا: (لأن يأخذ أحدكم حبله ليذهب فيحتطب ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه)^(١).

وقال : (ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ، ولا مستشرف فخذه ، وما لا ، فلا تبعه نفسك)^(٢).

فكرة أخذه مع سؤال اللسان ، واستشراف القلب .

وقال في الحديث الصحيح : (من يستعن بغير الله . ومن يستعن بغير الله ، ومن يتصرّب

وقوله لا تحل المسألة : أي الذي يحل له السؤال ، إما في غرم ، يعني يتحمل حمالة في ذمته يصلح بين قبيلتين أو بين قريتين أو بين شخصين أو بين زوجين ويتحمل في ذمته أموالاً يعطي هؤلاء عشرة آلاف وهملاً عشرة آلاف وهؤلاء الفاً ، مثلاً فهذا يسأل حتى يحصل هذا الشيء الذي تحمله ، حتى ولو كان غنياً إذا تحمل في ذمته ديوناً من أجل الإصلاح بين الناس يعطي حتى من الزكاة لأنه من الغارمين تقديرأ له على هذا العمل النبيل إذا أصلح بين شخصين أو بين قبيلتين أو بين زوجين وتحمل في ذمته ديوناً فيعطي من الزكاة ما يسدد هذه الديون تشجيعاً له على هذا العمل النبيل ، وهذا يسمى ذو غرم - أي غرامة - ، أو دم موجع أي أصاب دمًا مثلاً بسبب قتل - من المعلوم أن القتل الخطأ الديمة فيه تكون على العاقلة ، لكن نقدر أن لا يكون له عاقله أو يكون القتل مثلاً عمداً أو شبه عمداً مثلاً وعفى عنه فالمقصود أنه إذا كان صاحب دم فإنه يسأل حتى يسدد هذا الدين الذي عليه ، والثالث ، الفقر المدقع أي الشديد ، فيسأل بقدر حاجته فإذا وجد ما يسدد حاجته وحاجة أولاده (يسك) .

(١) رواه البخاري (١٤٧١).

(٢) رواه البخاري (١٥٣ / ١٣).

يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر^(١).

وأوصى خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً. وفي «المسند»^(٢): (أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد ناولني إيه، ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً).

وفي صحيح مسلم^(٣) وغيره، عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ بايعه في طائفه، وأمر بهم كلمة خفية: أن لا يسألوا الناس شيئاً.

فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يده أحدهم ولا يقول لأحد: ناولني إيه.

وقد دلت التصورات على الأمر بمسألة الخالق، والنهي عن مسألة الخلوق في غير موضع.

قوله تعالى: «فَإِذَا فَرَغْتَ فَالنَّصْبُ ۚ وَإِلَىٰ رِبِّكَ فَارْجِبْهُ»^(٤).

وقول النبي ﷺ لابن عباس: (إذا سالت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)^(٥).

وقوله ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ : والشاهد ﴿وَإِلَىٰ رِبِّكَ فَارْجِبْهُ﴾، يعني ارغب إلى الله في السؤال، ﴿وَإِلَىٰ رِبِّكَ فَارْجِبْهُ﴾ وتقديم الجار بال مجرور يفيد الحصر، يعني ارغب إلى الله ولا ترغب إلى غيره والمعنى اسأل الله ولا تسأل غيره، أي ارغب إلى الله في المسألة).

وقوله: قول النبي لابن عباس: إذا سالت فاسأل الله والمعنى لا تسأل المخلوق.

(١) رواه البخاري [١٤٦٩] ومسلم [١٠٥٣].

(٢) المسند رقم ٦٥ قال العلامة أحمد شاكر ضعيف لانقطاعه.

(٣) صحيح مسلم رقم [١٠٤٣] ورواه أبو داود [١٦٢٦].

(٤) سورة الانشراح: آية ٧ - ٨.

(٥) رواه أحمد [١/ ٢٩٣ / ٣٠٧] والترمذى [٢٥١٦].

ومنه قول الخليل: «فَابتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ»^(١) ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله. وقد قال تعالى: «وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ»^(٢).

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره. وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاوه لله، فلا يسأل رزقه إلا من الله، ولا يستثني إلا إليه، كما قال يعقوب عليه السلام «إِنَّمَا أَشْكُرُ بَيْتِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ»^(٣).

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل ، والصفح الجميل ، والصبر الجميل . وقد قيل: إن الهجر الجميل: هو هجر بلا أذى.

والصفح الجميل: صفح بلا معاتبة.

والصبر الجميل: صبر بغير شكوى إلى الخلق.

ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه: إن طاووساً كان يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى. فما أنَّ أَحْمَدَ حَتَّى مَاتَ^(٤).

وقوله ومنه قول الخليل: وهذا يدل على ورع السلف الصالح رحمهم الله ولا سيما الإمام أحمد فإنه لما مرض رحمة الله كان يثن من شدة المرض والأنين معروف فقرئ عليه أن طاووس بن كيسان اليماني من التابعين كان يكره أنين المريض ويقول إنه يكتب على الإنسان لأنه شكوى من الخالق إلى المخلوق فتصبر رحمة الله وسكت عن الأنين وقطع الأنين).

(١) سورة العنكبوت: ١٧.

(٢) سورة النساء: ٣٢.

(٣) سورة يوسف : آية ٨٦.

(٤) سيد أعلام النبلاء [٢١٥/١١].

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب عليه السلام قال: **(فَصَبَرَ جَمِيلٌ)**. وقال: **(إِنَّمَا أَشْكُوْ بَثِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)**^(١).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة يونس، ويوسف، والنحل، فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصحف.

وقوله وأما الشكوى: فالشكوى إلى الخالق والمشتكى إلى الله ، فالله منه المشتكى وإليه المشتكى ، فالشكوى إلى الخالق لا تنافي ، ولكن المنوع الشكوى إلى المخلوق إلا إذا كان هناك حاجة لأن تبين كأنه تُسئل فتخبر أن حالته كذا وكذا وذلك من باب الإضمار أو عند الطبيب إذا أراد أن يتعالج الإنسان يقول أحسنّ بكتّاً أو من باب الأخبار لأهله وأولاده حينما يسألون لا من باب الشكوى ، أما الشكوى فلا تجوز ، والشكوى إلى الخالق فهذه لاتسمى شكوى جزع ولهاذا قال الله عن يعقوب (فَصَبَرَ جَمِيلٌ ، ثم قال: إِنَّمَا أَشْكُوْ بَثِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ، فدل على أن شكواه إلى الله لا تنافي الصبر الجميل).

وقوله كان عمر: كان عمر رضي الله عنه يقرأ بالسور الطوال كلها كsurة يونس ويوسف والنحل ، ولما طعن كان يقرأ بهذه السور الطوال رضي الله عنه حتى يجتمع الناس ، خصوصاً في الركعة الأولى لأن صلاة الفجر مشروع فيها تطويل القراءة ، ولأن الناس بعد اليقظة من النوم بحاجة إلى سماع كلام الله وتدبّره فكان يقرأ بهذه السور الطوال وكان يمر بهذه الآية **(إِنَّمَا أَشْكُوْ بَثِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)** فيبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصحف ، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف).

ومن دعاء موسى^(١) (اللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث،
وعليك التكளان ولا حول ولا قوة إلا بك).

وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: (اللهم إليكأشكر
ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت
ربِّي. اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمرني؟ إن لم يكن بك غضب
علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بدور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح
عليه أمر الدنيا والآخرة: أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك. لك العتبى حتى ترضى ولا
حول ولا قوة إلا بالله).

وفي بعض الروايات: (ولا حول ولا قوة إلا بك)^(٢).

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجاؤه لقضاء حاجته ودفع ضرورته،
قويت عبوديته له، وحرسته مما سواه فكما أن طعمه في الخلق يوجب عبوديته له، فيأسه منه
يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عن شئ تكون نظيره، وأفضل على من شئ تكون
أميته، واحتج إلى من شئ تكون أسيرة.

وقوله ومن دعاء موسى : الشاهد وإليك المشتكى ، فالشکوى إلى الله
لاتنافي الصبر .

وقوله وفي الدعاء: والشاهد أن النبي ﷺ اشتكتى إلى الله ، ولا ينافي ذلك
الصبر (اللهم إلينك أشكو ضعف قوتي ، فالشکوى إلى الله لا تنافي الصبر).
وقوله وكلما : والمعنى أنك إذا استغنت عن شخص صرت نظيرًا له ونديد
أنت وإيابه سواء ما يحتاج إليك وأنت وإيابه سواء ما يحتاج إليك ولا تحتاج إليه

(١) قال الشيخ علي حسن في تعليقه على العبودية لعله من الروايات الاسرائيلية انظر العبودية
بحقيق علي حسن ص ١١٢ .

(٢) رواه بن اسحاق في السيرة [٧٠ / ٢] تهذيبها] مرسلاً ومن طريقه الطبرى في تاريخه
[٣٤٤ / ٢] انظر التفصيل في العبودية تحقيق علي حسن ص ١١٣ .

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له.

وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يوجو الخلق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومالكيه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائمه، وإما على ساداته وكبارائه، كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم، من هو قد مات أو يموت قال تعالى: ﴿وَتَرَكَ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبَّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾^(١).

وكل من علق قلبه بالخلقين أن ينصروه أو يرزقوه، أو أن يهدوه، خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أسيراً لهم مدبراً لأمورهم، متصرفاً بهم. فالعقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر.

فالرجل إذا تعلق قلبه بأمرأة – ولو كانت مباحة له – يبقى قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريده، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيراً لها

لأنك مستغن عنه وهو مستغن عنك ، واستغفن عن من شئت تكون نظيره يعني مثيلاً له ، وأفضل على من شئت تكون أميره ، إذا أعطيت أحداً شيئاً فأنت أمير عليه وهو عبد لك لأنك أنت الذي تفضلت وأنت الذي أعطيت ، واحتج إلى من شئت تكون أسيراً ، إذا احتجت إلى شخص فأنت أسير وعبد له لأنك تحتاج إليه تعلق قلبك به ، فالشخص الذي تستغن عنه نظير لك ومثيل لك ، والشخص الذي يحتاج إليك أنت أمير عليه ، والشخص الذي تحتاج إليه أنت أسير له .

وقوله فكذلك طمع: لأن العبرة بالحاجة فإذا احتاج إلى أحد تعلق قلبه به وإذا استغنى عنه لم يتعلق قلبه به ، فإذا علق الإنسان قلبه بالله وأنزل حوائجه بالله صار قلبه عبداً لله وإذا أنزل حوائجه بالخلقين صار عبداً لهم .

وملوكها.

ولا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشيقه لها، وأنه لا يتعاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تحكم فيه حكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن.

فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يالي ما دام قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يكتبه الاحيال في الخلاص.

وأما إذا كان القلب - الذي هو ملك الجسم - رقيقاً مستعبدًا، متيمًا لغير الله، فهذا هو الذل والأسر الحضن، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات.

وقوله فالرجل إذا تعلق: وهذا واقع فإذا تعلق رجل بأمرأة ولو كانت زوجته مثلاً تجده هو الزوج في الظاهر وهو الولي في الظاهر وهو صاحب البيت وصاحب النفقه لكن هي التي تدبّره في كل شيء، ولا يقدر أن يتخلّى لأن قلبه متبعد لها من شدة المحبة والتعلق.

وقوله ومن استعبد: لأن المحبوس من حبس قلبه عن الله، فما دام قلب المرء حرًا مرتاحًا فلا يضره ما يصيبه جسده لأن العبرة بالحرية والعبودية والراحة بالقلب.

وقوله وعبودية القلب: يعني أن العبرة بعبودية القلب، فإذا كان الإنسان مأسورًا في بلاد الكفار وقلبه مستريح فلا يضره ذلك فهو يعبد الله ويؤدي الواجبات التي يقدر عليها ولا يضره ذلك، حتى ولو أكره على التكلم بالكفر وتتكلم وقلبه مطمئن بالإيمان فإنه لا يضره ذلك، لكن المصيبة عبودية القلب، فإذا تعبد لغير الله فهذا الذي يضره ولو كان جسمه حرًا طليقاً.

ومن استعبد بحق، إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران^(١)، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك.

وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله، فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي ﷺ:
(ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس)^(٢).

وقوله ليس الغنى غنى كثرة: والعرض الأثاث والأموال والمتعة ومعنى الحديث أنه ليس الغنى في كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس، فبعض الناس عنده أموال طائلة وأثاث وأمتعة وشركات ومؤسسات لكن قلبه فقير لا يشبع، تجد قلبه دائماً متعلق بالدنيا، دائمًا قلبه لا يستريح ولا يطمئن، لا في نومه ولا في أكله ولا شربه ولا في جلوسه مع أهله، لأن قلبه فقير وإن كان عند أموال كثيرة، وبعض الناس ماله قليل قدر ما يكفيه، عنده الكفاف وقلبه مستريح مطمئن، لما جعل الله في قلبه من القناعة والراحة والطمأنينة، تجده مرتاحاً في بيته ومع أهله ومع أولاده ومع أقاربه ومع والديه وأرحامه الذي يصلهم فهو مستريح البال.

(١) كما صر عن النبي ﷺ فيما رواه البخاري [٩٧] ومسلم [١٥٤] والنسائي [٦/١١٥] (ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين: رجل كانت له أمة فأحسن تأديبها، وعلمتها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتنت وجهها، وملوك أعطى حق ربه عز وجل، وحق مواليه، ورجل أمن بكتابه وبحمد ﷺ).

(٢) أخرجه البخاري [٦٤٤٦] ومسلم [١٠٥١] عن أبي هريرة.

وهذا لعمر الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة.

فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان به عذاب.

وهؤلاء عشاق الصور، من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة، إذا بقي قلبه متعلقاً بها، مستعبدًا لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد.

ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدoram تعلق القلب بها. بلا فعل الفاحشة، أشد ضرراً عليه من يفعل ذنبًا ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه. وهؤلاء يشبهون بالسكارى والخانين، كما قيل:

سُكْرَانِ سُكْرُ هُوَ و سُكْرُ مَدَامَةٍ وَمَتَى إِلَاقَةً مَنْ بَه سُكْرَانِ؟

وقوله وهذا لعمره: (وهذا لعمرى إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة) وليس المراد بهذا هنا القسم وإنما المراد تأكيد الكلام، وجاء مثل هذا في كلام شيخ الإسلام، وكلام ابن القيم، بل جاء في كلام عائشة رضي الله عنها كما ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة يوسف أن عائشة قالت: لعمرى، بل جاء في حديث في سنن ابن ماجه أن المراد بهذا تأكيد الكلام، وأما قوله تعالى (العمرك إنهم في سكرتهم يعمهون) فهذا قسم من الله بحياة النبي ﷺ، والله تعالى له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

وقوله سكران سكر: يعني نوعان من السكر، السكر الأول: سكر الهوى والميل إلى غير الله كالذي يميل إلى عشق امرأة أو غيرها، فهذا سكر، والثاني: الدوام وتعلق القلب بها، يقول سكرانه، سكر هوى وسكر مدامه، ومتى إفادة من به سكران، شارب الخمر يسكر سكرًا واحدًا ويفيق إذا ذهبت شربة الخمر، لكن من به سكران متى يفيق، والسكر الأول سكر الهوى وهو الميل مستمر، والثاني: التعلق المستمر الذي لا ينقطع، وهذا لا يفيق أبداً.

وقيل:

قالوا جنتَ بِمَنْ تَهُوِي؟ قُلْتُ لَهُمْ:

الْعِشْقُ أَعْظَمُ مَا بِالْجَانِينَ.

العشق لا يستفيقُ الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في حين.

- ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا أذل ولا أمعن ولا أطيب. والإنسان لا يترك محبوها إلا يمحب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفاً من مكروره. فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر. قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِيَنْصُرِفَ عَنِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُحْلَّصِينَ﴾^(١).

وقوله: قالوا جنت: فهذا القائل، يقول العشق أشد من الجنون، لأن العاشق لا يفيق الدهر كله، بل قلبه متعلق بمحشوشة. أما المجنون فإن كان يصرع بعض الأحيان فهو يفيق بعض الأحيان. ولكن العاشق لا يستفيق أبداً، سكره مستمر، نسأل الله العافية، ولهذا قال: (العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في حينه)، أي بعض الأحيان.

وقوله فالحب الفاسد: يبين المؤلف رحمه الله أن الحب الفاسد يخرج عن القلب وينصرف بالحب الصالح أو الخوف من الضرر، كذلك اليقين الفاسد الذي في القلب، إنما يخرج باليقين الصالح، فالاليقين الصحيح هو الذي يخرج

(١) سورة يوسف: آية ٢٤.

فالله يصرف عن عبده ما يسوّه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى في قلبه، انصر له هواه بلا علاج.

قال تعالى: **«إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنَّكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ»**^(١). فلن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والنكرا، وفيها تحصيل محظوظ، وهو ذكر الله.

وتحصل هذه المحظوظ أكبر من دفع ذلك المكروه، فلن ذكر الله، عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

اليقين الفاسد، فإذا كان عنده يقين منحرف بأن اعتقاداً غير صحيح أي غير موافق لشرع الله فهذا يزول بالاعتقاد الصحيح، فيخرج هذا اليقين الفاسد إذا خلفه يقين صالح، يقين موافق لشرع الله، متيقن بأنه ملائق الله، متيقن بيوم القيمة، ومتيقن بالآخرة عنده يقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، هذا اليقين الصادق الصحيح هو الذي يخرج اليقين الفاسد، بعض الناس عنده يقين فاسد قد يعتقد أن الطواف بالقبور والذبح للأولياء والصالحين ودعائهم من دون الله ليس بشرك فهذا يقينه فاسد ويخرج هذا إذا تيقن يقيناً صحيحاً بأن هذا هو الشرك وأن هذا دعاء لغير الله فإذا تيقن هذا صار هذا يقيناً صحيحاً عرفاً الشك من التوحيد فخرجاً اليقين الفاسد، لكن بعض الناس يطوف حول القبور، ويقول هذا ليس عبادة إنما هو محبة للصالحين هذا توسل، وهذا الاعتقاد يقين فاسد، إنما يزول باليقين الصادق. كذلك الحب الفاسد إنما ينصرف عن القلب بالحب الصالح، واليقين الفاسد ينقلب عن القلب بالاعتقاد

(١) سورة العنكبوت: آية ٢٤.

والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل.

ولهذا قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾^(١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾^(٢) . وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَنِي ﴾^(٣) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾^(٤) . وقال: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَخْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَنِي لَهُمْ ﴾^(٥) . وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَيْدَاهُمْ ﴾^(٦) يجعل سبحانه غض البصر، وحفظ الفرج، هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور: من الفواحش والظلم، والشرك، والكذب وغير ذلك. وكذلك طالب الرئاسة والملو

الصحيح، لكن الاعتقاد الصحيح الموثق لما في كتاب الله وسنة رسوله وما يعتقده السلف الصالح من أن الدعاء لغير الله شرك، والذبح لغير الله شرك والطواف حول القبور للتقرب إليهم شرك، هذا اعتقاد صحيح يخرج اليقين الفاسد الذي يعتقده عباد القبور من أن هذا ليس شركا وإنما هو وسيلة ومحبة للصالحين.

وقوله إن الصلاة: الصلاة فيها ذكر الله عز وجل ، فالحكمة في تشريعها هو ذكر الله وعبودية القلب لله، وأما الفحشاء والمنكر فهذا شيء تنهى عنه الصلاة لأنه شيء دخيل ومكره فهو يزال حتى يخلص الشيء المقصود وهو ذكر الله وعبادة الله بالقلب واللسان والجوارح .

(١) سورة الشمس : آية ٩ - ١٠ .

(٢) سورة الأعلى : آية ١٤ - ١٥ .

(٣) سورة النور : آية ٣٠ .

(٤) سورة النور : ٢١ .

في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويغافهم، فيذل لهم الأموال والولايات، ويغفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم.

والتحقيق أن كلاماً فيه عبودية للأخر، وكلامها تارك لحقيقة عبادة الله. وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق، كانوا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين - لهواه الذي استعبد و واسترقه - مستعبد للأخر. وهكذا أيضاً طالب المال، فإن ذلك المال يستعبد و يسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

منها ما يحتاج العبد إليه، من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده - يستعمله في حاجته - بمنزلة حماره الذي يركبه،

وقوله منها ما يحتاج العبد: والمعنى أن الإنسان في أمور دنياه لا بد له من شيء يقوم بحاجته من طعام وشراب ومسكن وملبس ومنكح، وهذا الشيء الضروري الذي لا بد منه، وهناك شيء زائد عن حاجته، فأمور الدنيا تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يحتاجه الإنسان ولا بد له منه، فمثلاً لا بد له من أكل وشرب، ومسكن، ولا بد له من مركب، وزوجة، فهذه أمور ضرورية. يقول المؤلف رحمه الله: هذه الأمور الضرورية يطلبها من الله، ثم إذا حصلت عنده تكون وسيلة وليس غاية بمنزلة الحمار الذي يركبه يعني بمنزلة السيارة التي تركبها وبمنزلة البساط الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف والحمام الذي يقضي فيه حاجته وينصرف عنه، وكذلك الآن السيارة فهي وسيلة وليس بغایة، فالسيارة هي المركب الآن، فبعض الناس تجد عنده عنانية شديدة بالمركبات تغسيل ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً وهذا معناه جعل الوسيلة غاية، فصارت هي

وسيطه الذي يجعله عليه. بل منزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبدوه، فيكون هلوغاً **﴿إِذَا مَسَهُ الشَّرُّ جَزُوا [٢٠] وَإِذَا مَسَهُ الْخَيْرُ مَنْعَاهُ﴾**^(١).

ومنها: ما لا يحتاج العبد إليه فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه به. فإذا علق قلبه به صار مستعبدًا له. وربما صار معتمدًا على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكيل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكيل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ : «تعم عبد الدرهم، تعم عبد الدينار، تعم عبد القطيفة، تعم عبد الخميسة»^(٢) وهذا هو عبد هذه الأمور، فإنه لو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاها إياها رضي، وإذا منعها إياها سخط. وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويستخطه ما يستخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما يبغضه الله ورسوله، ويؤالي أولياء الله ويعادي أعداء الله تعالى. وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: (من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان)^(٣). وقال: (أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله)^(٤).

همه ، مع أنها وسيلة تنقلك إلى ما ت يريد فقط ، أما أن تجعلها هي الغاية وهي شغلك الشاغل ، فمعناه أنها أصبحت وسيلة غاية .

والقسم الثاني: ما زاد عن حاجة الإنسان فهذا لا ينبغي للإنسان أن يعلق قلبه به ، فإذا علق قلبه صار عبدًا له .

وقوله وإنما عبد الله: هذا عبد الله على الحقيقة، فهو الذي يرضيه ما يرضي الله ويستخطه ما يستخط الله ويحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله، هذا هو الذي استكمل الإيمان ، والمعنى أنه وافق الله في محبوباته ومكروهاته.

(١) سورة المعارج: آية ٢١.

(٢) سبق تخرجه

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١٠٣٥٧] عن ابن مسعود .

وفي الصحيح عنه عليه السلام «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» ^(١).

فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه. فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب الخلق لله، لا لغرض آخر. فكان هذا من قام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من قام محبة المحبوب، فإذا أحب الأنبياء والأنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق، لا لشيء آخر، فقد أحبهم الله لا لغيره. وقد قال تعالى: ﴿فَسُوفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذْلَلُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ^(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿Qَلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتَيْعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ﴾ ^(٣). فلن رسول لا

وقوله فإنه محبة المحبوب: هي من قام محبة المحبوب فالله تعالى يحب الأنبياء والملائكة والصالحين فإذا أحببتهם فهذا من قام محبة الله، ومن قام موافقة الله والله تعالى يبغض الكفار ويبغض الفاسقين فأنت إذا أبغضتهم فقد وافت ربك فيما يغضبه.

وقوله: ﴿Qَلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: وهذه الآية تسمى آية المحنـة عند العلماء وهي قوله تعالى: ﴿Qَلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتَيْعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ﴾، فقد ادعى قوم محبة الله فامتحنـهم الله بهذه الآية، والمعنى: إن كنتم صادقين في محبة الله فاتبعوا الرسول، فمن كان يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فهو صادق في محبته لله، ومن كان لا يتبع الرسول عليه السلام فهو كاذب في محبته له، ولا تقبل

(١) رواه البخاري [١١٦] ، [٦١١ / ٢٢١] ومسلم [٤٣].

(٢) سورة المائدـة : آية ٥٤.

(٣) سورة آل عمرـان : آية ٣١.

يأمر إلا بما يحب الله، ولا ينهى إلا عما يغضنه الله، ولا يفعل إلا ما يحبه الله، ولا يعبر إلا بما يحب الله التصديق به.

فمن كان محبًا لله، لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا، فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله.

وذلك لأنَّ الجهاد حقيقة الاجتِهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان، والعمل الصالح، وفي دفع ما يغضنه الله: من الكفر، والفسق، والعصيان وقد قال تعالى: ﴿هُنَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخِذُوا أَبْيَاءَكُمْ وَإِخْرَانِكُمْ أُولَئِيَّاءِ إِنَّ اسْتِحْبَابَ الْكُفْرِ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) قُلْ إِنَّ كَانَ أَبْيَاءَكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَإِخْرَانِكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَاتُكُمْ وَآمُوَالَ اقْرَفُتُمُوهَا وَتَجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضُونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(١). فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله

دعواه، وهذا دليل وبرهان على محبة الله، فدليل محبة الله اتباع الرسل ، فإذا رأينا الرجل يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام عرفنا أن محبته صادقة ، وإذا رأيناًه يخالف الرسول ﷺ عرفنا أن محبته كاذبة ، وهناك علامة أخرى وهي الجهاد في سبيل الله كما سيأتي ، فهذا علامتان لمحبة الله؛ الأولى اتباع الرسول والثانية الجهاد في سبيل الله .

وقوله: «فَتَرَبَصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» أي انتظروا ماذا يحل بكم من عقوبة ، توعد من قدم واحداً من هذه الأمور الشمانية آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشائركم وتجارة ، ثمانية أشياء من قدم واحدة منها على محبة الله ورسوله فعليه الوعيد الشديد).

(١) سورة التوبة : آية ٢٤ .

رسوله، والجهاد في سبيله بهذا الوعيد الشديد.

بل قد ثبت عنه عليه السلام في «ال الصحيح»، أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١). وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: «فوالله لأنت أحب إلى من نفسي». فقال: «الآن يا عمر»^(٢).

لحقيقة الحبة لاتتم إلا بوصاله المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض.

والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسق والعصيان.

وعلمون أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت الحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات فإذا كانت الحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد قادرًا عليها حصلها، وإن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك، كان له أجر كأجر

قول الآن يا محمد: أي الآن بلغت المحبة الواجبة والمطلوبة.

وقوله: فحقيقة الحبة: لاتتم إلا بوصاله المحبوب، فمن ادعى أنه يحب الله فلا بد أن يوالى الله، وموالاة الله معناها موافقة الله في حب ما يحب وبغض ما يبغض، فانظر إلى الشيء الذي يحبه الله فأحبه من شخص أو فعل أو حكم، وانظر إلى ما يبغضه الله من شخص أو فعل أو حكم فأبغضه، فالله تعالى يحب الصلاة والزكاة والصوم، وهذه من الأحكام، ويحب المؤمنين والأنبياء والصالحين ونحبهم، والله تعالى ينهى عن الفحشاء والمنكر والزنا والسرقة، ويبغض الكافرين والفاشين فتبغضهم وهكذا، هذا الصادق في محبته.

(١) رواه البخاري [١٥] ومسلم [٤٤] عن أنس.

(٢) رواه البخاري [٦٦٣٢].

الفاعل. كما قال النبي ﷺ: «من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من أتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن دعا إلى ضلاله، كان عليه من الوزر مثل أوزار من أتبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وقال: «إن بالمدينة لرجاً ما سرت مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، جسهم العذر»^(١).

وقوله إن بالمدينة: وهذا في غزوة تبوك، ذلك لما كان بالمدينة رجاءً تخلفوا للعجز وعدم الاستطاعة فكتب الله لهم أجر المجاهدين، وهم في المدينة، والمعنى أن المحبة إذا كانت تامة تستلزم الإرادة القوية، تدفعك إلى العمل إن كنت قادراً، وإن كنت عاجزاً ولا تستطيع كتب الله لك أجر العامل، مثل المجاهدين الذين تخلفوا عن المجاهدة لعدم الاستطاعة إما مريضاً أو أعمى أو أعرج أو ما عنده مال، ولهذا أخبر الله تعالى أن أناساً جاؤه للنبي ﷺ يطلبون أن يعطينهم شيئاً من الإبل حتى يركبوا عليها للجهاد، والرسول ﷺ ما عنده شيء فتولوا وأعينهم تفيس من الدمع من البكاء يريدون أن يشاركون المجاهدين لكن لا يستطيعوا وليس عندهم شيء والرسول ﷺ ما عنده شيء يعطينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْضُّعِيفِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفَقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِللهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (ولا على الذين إذا ما أثوك لتحملهم)، يطلبون يقولون يا رسول الله أحملنا على إبل، وليس عنده شيء، (قل لا أجد ما أحملكم عليه تولوا يعني رجعوا وأعينهم تفيس من الدمع حزناً لا يجدوا ما ينفقون) ما عليهم جناح (إنما السبيل على الذين يستأذنك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف

(١) رواه البخاري [٤٤٢٣] ومسلم [١٩١١] عن جابر.

والجهاد : هو بذل الوسع - وهو كل ما يملك من القدرة - في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق. فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد، كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله ومعلوم أن المحبوبات لا تزال غالباً إلا باحتتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة.

فالمحبوب للمال والرئاسة والصور، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا، مع ما يصيغ لهم من الضرر في الدنيا والآخرة.

فالمحب لله ورسوله إذا لم يتحمل ما يرى ذو الرأي من الخبيث لغير الله ما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم، دل ذلك على ضعف محبتهم لله، إذ كان ما يسلكه أولئك في نظرهم، هو الطريق الذي يشير به العقل.

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حباً لله، كما قال تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحْبِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لِّلَّهِ﴾**^(١).

نعم قد يسلك الحب - لضعف عقله وفساد تصوره - طريقة لا يحصل له بها المطلوب. فمثل هذه الطريقة لا تحمد إذا كانت احببة صالحة محسومة. فكيف إذا كانت احببة فاسدة، والطريق غير موصى؟ كما يفعله المتهورون في طلب المال والرئاسة والصور، من حب أمور توجب لهم ضرراً ولا تحصل لهم مطلوبها، وإنما المقصود: الطريق التي يسلكها ذو العقل السليم لحصول مطلوبه.

وإذا تبين هذا، فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ومعرفة وحرمة عما سواه، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حباً وفضله عما سواه.

وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون).

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥ .

والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين:

من جهة العبادة، وهي العلة الغائية.

ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحده والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلذ به من أخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وقوله والقلب فقير : هكذا قلب كل إنسان فقير بالذات إلى الله ، وكلمة بالذات هنا معناها أنه لا يفتقر إلى غيره ، فهو فقير إلى الله بالذات من جهتين ، من جهة العبادة ومن جهة التوكل عليه ، من جهة العبادة وهي العلة الغائية ، ومن جهة الاستعانة والتوكل على الله ، فأنت أيها الإنسان ، أيها العبد فقير بالذات إلى الله ، ليس لك انفكاك عن العبادة ، بل إنك إذ لم تعبد الله هلكت ، ثم من الجهة الثانية أنت فقير إلى الله بالاستعانة والتوكل ، ما تستطيع أن تعبد الله ولا أن تؤدي ما أوجب الله عليك ولا تنتهي عما حرم الله عليك إلا بإيعانة الله لك وتوكلك عليه ، فإذا أعناك الله فإنك تؤدي العبادة التي هي الغاية ، وعلى ذلك فالإنسان فقير بالذات إلى الله من جهتين ، وهذا هو معنى **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** ، إياك نعبد ، هذه العلة الغائية ، وإياك نستعين هذه العلة الفاعلية ، وعليهما مدار العبادة كلها ، فمدار الشرائع كلها على إياك نعبد وإياك نستعين ، ولهذا فإن الفاتحة جمعت ما في القرآن كله ، القرآن جمع الله في ما في الكتب السابقة من المعاني والعلوم ، وجمع الله ما في القرآن في الفاتحة ، وما في الفاتحة كله مجموع في **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** وقوله : ومن جهة الاستعانة والتوكل .

وهذا لا يحصل له إلا بإعانته الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**، فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ، ولم تحصل له عبادة الله فلن يحصل إلا على الألم والحسنة والمعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها، إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا محب شيئاً لذاته إلا لله. له هذا، لم يكن قد حق حقيقة : **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»**. فمعنى لم يحصل لهذا لم يكن قد حق حقيقة لا إله إلا الله ولا حق التوحيد والعبودية والحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان، بل من الألم والحسنة والمعذاب بحسب ذلك، ولو سمع في هذا المطلوب، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه، مفتقرًا إليه في حصوله، لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشاً لم يكن.

أي أنه مهما أعطى في الدنيا من أنواع ما يفرح القلب ، وأنواع المللذات ، فالقلب فقير وليس له راحة ولا طمأنينة إلا بعبادة الله ، فإذا لم يعبد الإنسان الله فاته اللذة ولو أُوتى جميع أنواع المللذات فإنها لا تفيده شيئاً ، فهو فقير بالذات إلى عبادة الله ، فلا تسكن نفسه ولا تطمئن إلا بعبادة الله ، ثم أيضاً عبادة الله لا تحصل للإنسان إلا بإعانته الله وتوفيقه فلابد من الاستعانة بالله والتوكيل عليه **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**

وقوله وهذا لا يحصل إلى قوله لا إله إلا الله : أي كل شيء سوى الله محبوب فإنا نحب لأجل الله ، مثل محبة النبي ﷺ فإنها تابعة لمحبة الله ، ومحبة الأنبياء ، ومحبة الصالحين ، هذه كلها تابعة لمحبة الله .

وقوله حقيقة لا إله إلا الله : معناها لا معبود بحق إلا الله ، فال العبادة حق الله لا يشاركه فيها أحد لا نبي ولا ملك ولا غيره ، حتى الرسول ﷺ فهو له المحبة والطاعة والاتباع والتصديق والتعظيم والتوقير ، وهذه من حقوق الرسول ، أما العبادة فهي حق الله .

فهو مفتقر إلى الله، من حيث هو المطلوب المحبوب، المراد المعبد، ومن حيث هو المسؤول المستعان به، المترکل عليه، فهو إلهه الذي لا إله له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه. ولا تم عبوديته لله إلا بهذين.

فمتي كان يحب غير الله لذاته، أو ينتفت إلى غير الله أن يعينه، كان عبداً لما أحبه، وعبدًا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحدًا لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه، فلأنما أحبه له، ولم يرجُ قط شيئاً إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها له، وأن كل ما في السموات والأرض، فالله ربها ومليكها وخالقه ومسخره، وهو مفتقر إليه، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوتة، لا يحصي طرقها إلا الله. فأكمل الخلق وأفضلهم، وأعلاهم وأقربهم إلى الله، وأقواهم، وأهدائهم: أقفهم عبودية الله من هذا الوجه.

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسلاه، وأنزل به كتبه، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره. فالمستسلم له ولغيره مشرك والممتنع عن الاستسلام له مستكبر.

قوله: فمتي كان: ومعنى ذلك أن الإنسان لا يحب إلا الله ولا يرجو إلا الله، وإذا حصل له شيء من الأسباب الدنيوية فلا بد أن يشهد أن الله هو الذي خلق كل سبب في الدنيا، وكل شيء يحصل خلقه، فهو الذي هييء وقدر الأسباب إذا الأمر كله يرجع إلى الله، ولو لا الله لما هيأ لنا السبب، ولو لا الله ما حرك قلب الشخص حتى يعطى ما يعطى، فالله تعالى هو الذي خلق الأسباب والسببات وهو الذي يحرك قلب هذا العبد حتى يعينك ويساعدك وهكذا، فالامر كله لله، إذا علق قلبك بالله.

قوله الناس في هذا: هذه حقيقة الإسلام الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به الكتب؛ أن يستسلم العبد لله، مع الإيمان به في الباطن دون كل ما سواه.

وقد ثبت في «ال الصحيح » عن النبي ﷺ «أن الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، كما أن النار لا يخلد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(١)، فجعل الكبر مقابلًا للإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية.

والناس في هذا طبقات ثلاث:

الطبقة الأولى: الذي استسلم لله فقط ولم يستسلم لغيره، وهو في الباطن مؤمن بالله ورسوله عن صدق وإخلاص، هذا هو المؤمن.

القسم الثاني: الذي استسلم لله في الظاهر لكنه غير مؤمن بالباطن، وهؤلاء هم المنافقون في الدرك الأسفل من النار، يصلون ويصومون ويجاهدون مع النبي ﷺ لكنهم غير مؤمنين بالله ورسوله.

القسم الثالث: مستكبر عن الله، لا يستسلم لله فهذا كافر مستكبر عن الله، مثل فرعون وإبليس، فهذا معترض في الباطن ومصدق في الباطن لكن غير منقاد وغير مستسلم لله، ولهذا اعترض إبليس على الله لما أمره بالسجود لأدم، قال له: أنا لا أسجد لأدم، أنا خير منه، أنا عنصري أحسن من عنصر آدم، فعنصر آدم الطين وأنا عنصري النار، والنار أحسن من الطين ولا يمكن أن يخضع الفاضل للمفضول، عارض أمر الله، فهو عنده نص من الله (اسجدوا لأدم) لكنه قال: أنا لا أسجد، وعارض النص بقياس الفاسد، فكان أول من قاس قياساً فاسداً إبليس، فطرده الله وصار شيطاناً رجيناً، وكذلك فرعون جاءه النص من الله تعالى فعارضه، فصار مستكبراً، والخلاصة أن الناس طبقات ثلاث، مستسلم لله مؤمن في الباطن، وهؤلاء هم المؤمنون، ومستسلم في الظاهر غير مؤمن في الباطن، وهؤلاء المنافقون، وغير مستسلم في الظاهر وإن كان مصدقاً في الباطن، وهذا كافر مثل فرعون وإبليس.

(١) رواه مسلم [٩١].

كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال (يقول الله: العظمة إزارى، والكرياء ردائى، فمن نازعني واحداً منها عذبته) ^(١).

فالعظمة والكرياء من خصائص الربوبية، والكرياء أعلى من العظمة، ولهذا جعلها عذلة الرداء كما جعل العظمة عذلة الإزار.

ولهذا كان شعار الصلاة والأذان والأعياد: هو التكبير، وكان مستحجاً في الأمكنة العالية، كالصنفا والمروءة ^(٢)، وإذا علا الإنسان شرفاً ^(٣)، أو ركب دابة ^(٤) ونحو ذلك، وبه يطفأ الحريق وإن عظم ^(٥)، وعند الأذان يهرب الشيطان ^(٦) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ^(٧). وكل من استكبر عن

قوله فالعظمة والكرياء: والمعنى أن الكبر ضد الإيمان، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فمن كان يتكبر عن عبادة الله فلا يدخل الجنة، فمن استكبر عن عبادة الله بحيث يمنعه هذا الكبر عن توحيد الله وإخلاص الدين له فهذا من أهل النار، أما إذا كان كبراً فيما دون ذلك فيما هو أقل من هذا يتعلق بالمعاصي فهذا يكون معصية، كما أن النار لا يخلد فيها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولو دخل النار، إذا كان موحداً مؤمناً ولو كان له

(١) رواه مسلم [٢٦٢٠] بلفظ الحديث النبوى [العز إزاره] وأخرجه أبو داود [٤٠٩٠] وابن ماجه [٤١٧٤] وأحمد [٤١٤] ، [٢٤٨] بلفظ المصنف رحمة الله .

(٢) كما رواه مسلم [١٢١٨] وأبو داود [١٩٠٧] عن جابر .

(٣) أخرجه البخاري [٦٣٨٥] ومسلم [١٣٤٤] عن ابن عمر .

(٤) كما رواه مسلم [١٣٤٢] والترمذى [٣٤٤٤] عن ابن عمر .

(٥) أورد هذا الحديث المصنف رحمة الله في الكلم الطيب رقم [٢٢١] .

(٦) كما رواه البخاري [٢/٦٩٧] ومسلم [٣٨٩] عن أبي هريرة .

(٧) سورة غافر: آية ٦٠ .

عبادة الله لا بد أن يبعد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء: حارث وهمان^(١) فاحارث: الكاسب الفاعل، والهمام: فعال من الهم، والهم أول الإرادة، فالإنسان له

معاصي يعذب في النار على قدر معا�يه ثم يخرج منها. وذلك أن الكبر ينافي حقيقة العبودية لله ، ولهذا يقول الله تعالى : (العظمة إزارى والكبراء ردائي فمن نازعني واحدة منهما عذبته) فالعظمة والكبراء هذه صفتان من صفات الله . يقول المؤلف رحمه الله صفتان من صفات الله ومن خصائص الربوبية ، العظمة والكبراء ، والكبراء أعلى ولهذا جعل العظمة بمنزلة الإزار والكبراء بمنزلة الرداء ، ولهذا كان شعار الصلاة والأذان التكبير (الله أكبر) في الأذان وفي الإقامة وفي الصلاة ، ومستحب في الأماكن العالية في الأسفار إذا علا الإنسان شرفاً كبراً الله ، وقال المؤلف : وبه يطفأ الحريق ، وهذا م التجرب ، إذا رأيت حريقاً تقول : الله أكبر الله أكبر ، وتكثر من التكبير لأن هذا الحريق وهذه النار علت وارتقت والله أعظم منها وأعلى ، فالتكبير يطفئها ، وكذلك عند سماع الأذان فعند الأذان كما في الحديث أن الشيطان يهرب ، فإذا انتهت رجع ، فإذا أقيمت الصلاة ولّى مرة ثانية وهكذا .

وقوله فاحارث الكاسب : بين المؤلف رحمه الله تعالى ، أن الاستكبار عن عبادة الله يلزم منه الشرك ، فكل مستكبر مشرك وذلك لأن من استكبار عن عبادة الله فلا بد أن يعبد الشيطان فإن كل إنسان حساس متحرك له إرادة ، والإنسان حارث وكاسب وهمام ، والهمام : فعال صيغة مبالغة من الهم ، والهم أول الإرادة ، فالإنسان له إرادة ، فمن لم يكن الله مراده صار له مراد غير الله ولا

(١) رواه ابن وهب في جامعه [ص ٧] عن عبد الله بن عامر اليحصبي مرسلاً بأسناد صحيح .

إرادة دائمًا وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محظوظ هو متنهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومتنهى حبه وإرادته، بل استكبار عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محظوظ، يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحظوظ: إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إليها من دون الله، كالشمس والقمر، والكتاب، والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً، أو غير ذلك مما عبد من دون الله.

بد فمن لم يكن الله مراده ومحظوظه فلا بد له من مراد ومحظوظ يتنتهي إليه وهو ما سوى الله، سواء كان شمساً أو قمراً أو صوراً أو مالاً أو شخصاً أو غير ذلك . فمن لم يعبد الله لا بد أن يعبد غير الله ، ولهذا كان فرعون مستكباراً عن عبادة الله ، وكان مشركاً وكان له إله يعبد ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن فرعون ﴿وَقَالَ الْمُلَأُ مِنْ قَوْمِ فَرْعَوْنَ: أَنْذَرُوا مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا يَرْكُنُوا إِلَيْهِنَّ﴾ فأخبر الله أن لفرعون آلة . فإذاً الكبير مستلزم للشرك ، والشرك ضد الإسلام ، والشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله عز وجل .

وبين المؤلف رحمة الله أن الكائنات كلها مسلمة لله ، يعني أنها معبدة ، كل الكائنات المخلوقات كلها أسلمت لله ﴿وَلَوْ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فهي معبدة يعني مدبرة ينفذ فيها قدر الله وتنفذ فيها مشيئته ، وهذه العبادة يعني التعبيد والعبادة العامة هي التعبيد العام ، وأما العبادة الخاصة فهي التي يأمله فيها العبد باختياره ويعبد الله ويطيع أوامرها ويتجنب نواهيه .

وبين المؤلف رحمة الله : أن الخلية أكمل من المحبة وأنها أكمل مراتب المحبة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله كلاماً خليل الله ، وبين المؤلف رحمة الله : أن بعض الناس يقول الخلية لإبراهيم والمحبة لمحمد ، ويظن أن المحبة فوق الخلية وهذا ضعيف ، فالخلية من العبد تتضمن تحقيق كمال العبودية

لله، وكمال الخلة هي كمال المحبة وهي تستلزم من العبد كمال العبودية لله، وتستلزم من الرب كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم . والنبي ﷺ لم يتخذ أحداً من الناس خليلاً وإنما اتخذ ربه خليلاً، لكن أخبر أنه يحب كثيراً، فهو يحب أسامة ويحب الحسن ، والله تعالى أخبر أنه يحب المتقيين ويحب المحسنين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ، وأما الخلة فهي خاصة . وبين المؤلف رحمة الله أن الخلة والمحبة فيهما تحقيق عبودية الله عز وجل ، وأن الخلة والمحبة إنما يعرف معناهما ويتحقق ما دلت عليهما من عرف الله وعلم عظمة الله سبحانه وتعالى . وبين المؤلف رحمة الله : أن بعض شيوخ الصوفية حصل عندهم ضعف في العلم وضعف في العقل وحصلت لهم رعونة فانبسطوا في المحبة مع العبودية لله كدعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقد أكذبهم الله بذلك ، ومن رعونة بعض الصوفية وادعائهم لمحبة الله ما أثر عنهم من الأقوال السيئة ، كقول بعضهم : أي مرید لي ترك في النار أحداً فانا منه برئ وقول الآخر : أي مرید لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فإني منه برئ . فال الأول جعل مریده يخرج كل من في النار . والثاني جعل مریده يمنع أهل الكبائر من دخول النار ، ويقول بعض الصوفية : إذا كان يوم القيمة نصبت خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد . كل هذا من السفه وضعف العقل وضعف العلم ، يقول المؤلف : إنَّ هذَا يصدر مِنْهُمْ فِي حَالٍ سُكُرٍ وَغَلَبَةٍ فَنَاءٍ ، أَحْيَانًا يَسْقُطُ فِيهِ التَّمِيزُ عَنْ بَعْضِهِمْ فَيَكُونُ كَالْجَنُونِ لَا يَمِيزُ ، وَلَهُذَا إِذَا افَاقَ فَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ . وَدَعَوْيَ هُؤُلَاءِ الْمَحْبَةَ باطِلٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى امْتَحِنْ قَوْمًا ادْعُوا الْمَحْبَةَ امْتَحِنْهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تَحْبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوهُنِّي يَحْبِبُكُمُ اللَّهُ﴾ ، فَدَعَوْيَ مَحْبَةَ اللَّهِ لَا بَدْ لَهَا مِنْ دَلِيلٍ ، دَلِيلُهَا اتَّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ وَالْجَهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى مَا كَانَ ،

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركاً، وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله. وكان مشركاً. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾٢٣﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ قَالُوا سَاحِرٌ كَذَابٌ ﴾هـ إلى قوله ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾هـ إلى قوله ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَاهِرٍ ﴾هـ^(١).

من جاهد في سبيل الله حق الجهد واتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فهو صادق في محبته، وإذا تخلف في هذان الزمان فهو كاذب في دعوة محبته كالصوفية وأشياهم.

وقوله وإذا كان العبد: يعني أن من لم يعبد الله لا بد أن يعبد غيره، ليس هناك أحد ليس له معبود مطلقاً، بل الكل له معبود، من لم يعبد الله عبد الهوى والشيطان، حتى الملاحدة المتعللين من الأديان يعبدون الشيطان ويعبدون أهواءهم لأن الشياطين هي التي أمرتهم بذلك، فالملحد المتعلل من الأديان مشرك لأنه يعبد الشيطان والشيطان هو الذي أمره بذلك بعبادة هواه.

وهذه قاعدة عامة: ليس هناك أحد ليس له معبود، بل من لم يعبد الله عبد الشيطان والهوى، فعلى ذلك يكون من استكبار عن عبادة الله مشركاً ولا بد، فمثلاً، فرعون مستكبر عن عبادة الله لكنه مشرك عبد هواه وعبد الشيطان، وكذلك إبليس مستكبر لأنه عبد هواه، فمن لم يعبد الله عبد غيره ولا بد، فكل أحد له معبود شاء أم أبى فكل أحد من المخلوقين له معبود إن لم يعبد الله عبد الشيطان).

وقال تعالى: ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذْهِبُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾^(٢).

وقال ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنُتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعَلُوًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(٣).

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنَّدَرَ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذْرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾^(٤).

وقوله ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ ﴾: وكل هذا من عبادة فرعون لهواء، فلما كان فرعون يعبد الهوى ويعبد الشيطان لذلك علا في الأرض وجعل أهلها شيئاً، ولما استكبر عن توحيد الله وعن عبادة الله واستكبر عن اتباع رسول الله موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، كان مستكراً عن عبادة الله وكان مشركاً يعبد هواء ويعبد الشيطان ، وكان له آلهة من دون الله كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَذْرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾.

وقوله ويدرك وآلتهتك: الشاهد قوله ﴿ وَيَذْرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ إذا فرعون له آلهة يعبد يعبدها من دون الله، لأن الملايين الأشراف من قومه قالوا له يخاطبونه: كيف تترك موسى يفسد في الأرض ويتركك وآلتهتك. وانظر كيف انقلبوا الموازين حين جعلوا موسى يفسد في الأرض، وموسى يأمره بعبادة الله وتوحيد الله ، قالوا: كيف تترك موسى يفسد في الأرض ويتركك ويترك آلتهتك التي

(١) سورة العنكبوت: آية ٣٩.

(٢) سورة القصص: آية ٤.

(٣) سورة النمل آية ٢٤.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٢٦.

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله، كان أعظم إشراكاً بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله، ازداد فقرًا وحاجة إلى المراد الحبوب الذي هو المقصود - مقصود القلب بالقصد الأول - فيكون مشركاً بما استعبد من ذلك. ولن يستغنى القلب عن جميع الخلوقات، إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكّل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يغضبه رب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادى إلى من عاداه الله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض شيئاً إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله.

فكلما قوي إخلاص حبه دينه لله كملت عبوديته، واستغناه عن الخلوقات. وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك. والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود. قال الله تعالى: ﴿أَتَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ أَبْنَى

تبعدها، وقد أخبر الله عن المنافقين قبل ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . فسموا فسادهم صلاحاً، وسموا دعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله واتباع الحق سموها إفساداً في الأرض، كيف ترك موسى يفسد في الأرض، فهذه عادة أهل الباطل يرمون أهل الحق بداعتهم نسأل الله السلامة والعافية .

وقوله بل الاستقراء: وبهذا يكون القلب قد استغنى عن جميع الخلوقات إذا اتصف بهذه الأوصاف، إذا كان الله هو مولاه ولا يعبد إلا إياه ولا يستعين إلا بالله، ولا يتوكّل إلا عليه، ولا يحب إلا ما يحبه، فدلالة ذلك أنه وافق الله في محابيه ومرضايه ومساخطه، فيحب ما يحبه الله ويُسخط ما يُسخطه الله فهو موافق لولييه ومعجوبه .

مرئيم كعبه^(١).

وقال في اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرُتُمْ فَقَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَقَرِيقًا تَقْتَلُونَ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿هُوَ أَصْرَفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْفَسَادِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾^(٣).

ولما كان الكبير مستلزمًا للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله - قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْتَرَ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٥).

قوله الشرك غالب : هذا هو الغالب على فرق اليهود العلم وتختلف العمل ، فهم يعصون على بصيرة ، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرُتُمْ فَقَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَقَرِيقًا تَقْتَلُونَ﴾ ، ولكن يوجد منهم من ليس عنده علم ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَى أَمَانِي﴾ يعني لا يعلمون الكتاب إلا مجرد التلاوة ، وهؤلاء جهال ، ولكن يغلب عليهم العلم وتختلف العمل . أما الذي يغلب علي طوائف النصارى فهو الجهل والضلال ، ومع أن منهم علماء ومنهم رهبان وقسيسين ، ولكن الغالب عليهم الجهل .

قوله إن الله : فسمى الله الشرك ضلالاً بعيداً ، يعني وصل إلى حد الغاية في البعد ، وهو فريدة عظيمة ، فالشرك أعظم الذنوب ولها لا يغفره الله ، من لقي الله يشرك به الشرك الأكبر فإنه من أهل النار الخالدين فيها ولا نصيب له في الرحمة ، نسأل الله العافية وهو يائس من رحمة الله ، أما من لقيه بما دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء غفر له وإن شاء عذبه .

(١) سورة التوبة : آية ٣١.

(٢) سورة البقرة : آية ٨٧.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٤٦.

(٤) سورة النساء : آية ٤٨.

(٥) سورة النساء : آية ١١٦.

كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، لا من الأولين، ولا من الآخرين. قال نوح ﴿فَإِن تَرْكِيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١). وقال في حق إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين^(٣) ووصى بها إبراهيم بيته ويعقوب يا بي إله اصطفني لكم الدين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون^(٤). وقال يوسف: ﴿تَرَقَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّيْنِ بِالصَّالِحِينَ﴾^(٥). وقال موسى: ﴿يَا قَوْمَ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾^(٦). وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التُّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾^(٧).

وقالت بلقيس: ﴿رَبِّنِي طَلَّتْ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٨). وقال: ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيْنَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٩). وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١٠). وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعُ غَيْرَ الْإِسْلَامَ دِيْنَنَ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١١). وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرُ دِيْنِ اللَّهِ يَعْقُولُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(١٢).

وقوله كان الأنبياء: هذه النصوص كلها تدل على أن الأنبياء جميعاً كلهم مبعوثون بدين الإسلام ودينهم دين الإسلام، وهو دين الأنبياء جميعاً، فهو

(١) كما في سورة يونس: ٧٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٠-١٣٢.

(٣) سورة يوسف: آية ١٠١.

(٤) سورة يونس: آية ٨٤-٨٥.

(٥) سورة المائدة: آية ٤٤.

(٦) سورة التمل: ٤٤ حكاية عنها.

(٧) سورة المائدة: ١١١.

(٨) سورة آل عمران: ١٩.

(٩) سورة آل عمران: ٨٥.

(١٠) سورة آل عمران: ٨٣.

دين نوح ودين هود ودين صالح ودين شعيب ودين إبراهيم وموسى ويعيسى ومحمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، بمعنى أنهم جميعاً جاءوا بتوحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وتعظيم أوامر الله، وأن يعظموا أوامر الله ويتمثلوها ويتهربوا عن محارم الله، أما الشرائع فإنها تختلف من شريعة لأخرى، فالتكاليف تختلف من شريعة لأخرى، فمثلاً في شريعة يعقوب عليه الصلاة والسلام يجوز الجمع بين الأخرين، وفي شريعتنا الكاملة منع ذلك، وكذلك في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام جاء على ما يدل على أن القصاص يجب، وفي شريعة النصارى يجب العفو، وفي شريعتنا يخير أولياء القتيل بين القصاص وبين العفو إلى الديمة وبين العفو مجاناً، فالشرع تختلف من شريعة لأخرى **(لكل جعلنا لكم شرعاً ومنهاجاً)**.

فالإسلام دين الله ودين الأنبياء جميعاً، كلهم أمروا بتوحيد الله، فكلنبي يقول لقومه **(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)** أمروا بتوحيد الله ونهوا عن الشرك، وأمرروا بالإيمان بالكتب المترفة والرسل وبال يوم الآخر وبالبعث وبالجزاء وبالجنة والنار وبالقدر خيره وشره وبت تعظيم الأوامر والنواهي وهكذا. فدين الإسلام في زمن نوح توحيد الله والعمل بما جاء به نوح من الشريعة، ودين الإسلام في زمن عهد هود توحيد الله واتباع ما جاء به هود من الشريعة، ودين الإسلام في زمن إبراهيم توحيد الله والعمل بما جاء به من الشريعة، ودين الإسلام في زمن موسى هو توحيد الله والعمل بما جاء به موسى من الشريعة وهكذا حتى بعث الله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وكانت شريعته خاتمة لجميع الشرائع، أما توحيد الله وإخلاص الدين له والإيمان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر والقدر فهو دين الله في كل زمان وفي كل مكان.

فذكر إسلام الكائنات طوعاً وكرهاً، لأن الخلوقات جميعها متعددة له التعبد العام، سواء أقر المقرب بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مدبرون، فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً، ليس لأحد من الخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين وملكيكم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارتهم ومصورهم.

وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مقطور، فغير محتاج معبد مقهور، وهو سبحانه الواحد القهار، الخالق الباري المصور.

وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدار له، وهو مفترض إليه كافتخار المسبّب، وليس في الخلوقات سبب مستقل بفعل خير ولا دفع ضر، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه. وإلى ما يدفع عنه الفند الذي يعارضه ويعلن عنه.

وهو سبحانه وحده الغني عن كل ما سواه، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرِّهِ هُنْ كَاشِفَاتُ ضُرَّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةِ هُنْ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسِكَ اللَّهُ بِضُرِّهِ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسِكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢). وقال تعالى عن الخليل: «إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حِينَماً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ»^(٣) وَحَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتَحَاجُجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً^(٤) إِلَى قَوْلِهِ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلِبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾^(٥).

وقوله وإن كان قد: المعنى أن هناك أسباباً ربطها الله بالأسبابات ، وليس هناك سبب واحد يستقل في حصول المطلوب ، بل كل شيء ربطه الله بأسباب وموانع ، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل المطلوب ، وليس هناك

(١) سورة الزمر: آية ٣٨.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٧.

(٣) سورة الأنعام: آية ٧٨ - ٧٢.

وفي «الصحيحين»^(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله! أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «إنا هو الشرك»، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: «إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»^(٢). وإبراهيم الخليل إمام الحفاء الخلقين، حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين.

قال الله تعالى: «وَإِذَا ابْتَلَنِي إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ بِكَلَمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»^(٣). في حين أن عهده بالإمامه لا يتناول الظالم، فلم يأمر الله سبحانه أن يكون الظالم إماماً، وأعظم الظلم الشرك.

شيء له تأثير مستقل إلا مشيئة الله؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أما المخلوقات فليس هناك شيء يستقل منها في حصول المطلوب، بل كل سبب لا بد له من أسباب تعاونه ولا بد من موقع تمنعه، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل المطلوب. مثلاً إذا كان لك أرض تريد أن تزرعها لا بد أن تفعل الأسباب، ولا يكفي سبب واحد، فكونك تبذّر مثلاً لا بد أن تحرث الأرض وتجرّي عليها الماء، وتسقيه، ثم أيضاً لا بد من صرف الموانع الآفات التي تصيب الزرع، قد تصيبها آفات، فإذا وجدت الأسباب وانتفت الموانع حصل الزرع وإنما فلا يحصل، وهكذا جميع الأسباب، كل الأسباب ربطها الله بالأسباب وليس هناك سبب واحد يستقل في حصول المطلوب إلا مشيئة الله، بل كل سبب لا بد له من أسباب تعينه ولا بد له من موانع تمنع، فإذا وجد السبب ووجدت الأسباب المعينة وانتفت الموانع حصل المطلوب وإنما فلا يحصل.

وقوله وفي الصحيحين: الظلم كما هو معلوم ثلاثة أنواع: النوع الأول وهو أعظمها - هو الشرك بالله عز وجل، وهذا هو الظلم الأكبر، وهذا الذي من لقي الله به فإنه مخلداً في النار ليس له نصيب في الرحمة، قال الله تعالى:

(١) رواه البخاري [١/٨١] ومسلم [١٢٤].

(٢) سورة لقمان: آية ١٣.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٤.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتَلَهُ حَيْفَا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١). والأمة هو: معلم الخير الذي يؤتى به، كما أن القدوة: الذي يقتدي به.

والله تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب، وإنما بعث الأنبياء بعده بلته.

قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْحَبَنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَيْفَا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وسمى ظلما لأن الشرك وضع العبادة في غير موضعها، لأن الظلم معناه هو وضع الشيء في غير موضعه، والشرك وضع العبادة في غير موضعها حيث صرف حق الله ومحض حق الله الذي لا يستحقه غيره إلى مخلوق ناقص ضعيف فعبد غير الله، ودعا غير الله وذبح لغير الله فصرف العبادة التي لا يستحقه إلا الله لغيره، وهذا أعظم الذنب.

النوع الثاني: ظلم العباد بعضهم البعض، كالاعتداء على الناس في دمائهم أموالهم أغراضهم، فهذه مبنية على المشاحة ولا بد من أداء المظالم إلى أهلها، فإن لم يؤدها في الدنيا أديت في الآخرة من حسناته، وهو المفلس كما في الحديث: (أتدرؤن من المفلس قالوا يا رسول الله: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال المفلس من يأتي يوم القيمة بصلة وصيام وأعمال كالجبال ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وسفك دم هذا وأخذ مال هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار).

النوع الثالث: ظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين الله بما يتعلق بحقوق الله التي لم تصل إلى حد الشرك وليس من حقوق العباد، كأن يقصر في بعض الواجبات ويفعل بعض المحرمات التي لا تتعلق بحقوق الآخرين.

وقوله: وقال تعالى إن إبراهيم كان: نعم بعث الله الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام بلته وكلهم من ذريته، فكل الأنبياء الذي جاؤوا بعد إبراهيم من ذريته

(١) سورة التحل: آية ١٢٠.

(٢) سورة التحل: آية ١٢٣.

ومن سلالته، كما قال الله تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» وإبراهيم عليه الصلاة والسلام رزقه الله تعالى بابنين وهم نبيان كرييان؛ الأول إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهذا هو يكره وأمه هاجر ويقال لها آجر، وهي التي أهداها ملك مصر في ذلك الزمان إلى ساره، لما مر عليه الصلاة والسلام وزوجته ساره بنت عمه وهي من أجمل النساء قيل له إن هنا رجلاً معه إمرأة من أجمل النساء لا ينبغي أن تكون إلا لك وكانت إمرأة صالحة، فقال لها إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وسأقول إنك اختي حتى لا يحصل فيه غيرة، ويأول أنها اخته في الإسلام، قال أنت اختي في الإسلام ليس في الأرض مؤمن غيري وغيرك فأخذها الملك وكشف الله لإبراهيم عنه فكان هذا الملك كلما مد يديه إليها أصيب وسقط وجعل يفحص برجله، هذا من حمایة الله لأوليائه، فدعت ربها وقالت يا ربى إن يمت يقال قتلتة فأفاقت ثم مد يده مرة أخرى فسقط وأغمي عليه وجعل يفحص برجله، وقالت: ربى اللهم إن يمت يقال قتلتة، فعل هذا ثلاث مرات، فلما أفاق في المرة الثالثة قال أخرجوها عنى إنما جئتوني بشيطاناً وأعطتها سارة فأعطتها إبراهيم عليه الصلاة والسلام فتسربها فولدت له إسماعيل، وكانت زوجته سارة وهي بنت عمه عقيماً لا تلد، فلما تسرى هاجر ولدت له إسماعيل، وكانت كريمة على الله، ومن كرم سارة على الله أن الله تعالى - بما أراد من الحكمة - أمر إبراهيم أن يذهب بهاجر وابنها إلى مكة وكانوا في الشام، فذهب بهما ثم رزق الله سارة بعد ذلك بولد صار نبياً وهو إسحاق بعد مدة بينهما ما يقرب من اثني عشر سنة أو أكثر، فإسماعيل عليه الصلاة والسلام من سلالته نبينا محمد ﷺ وهو الأب الثاني وهو أبو العرب، فالآب الأول إبراهيم والأب الثاني إسماعيل أبو العرب، وأما إسحاق الولد الذي من سارة فقد انجب يعقوباً، ويعقوب هو إسرائيل وأنبياء بنى إسرائيل كلهم من سلالته، ويعقوب أنجب يوسف فكان يوسف نبينا وأبوه يعقوب نبياً وإسحاق نبينا وجده الثاني إبراهيم نبينا، ولهذا جاء في الحديث الكريم ابن الكلير، ابن الكلير، يوسف ابن يعقوب ابن إبراهيم، فإسماعيل من ذريته نبينا محمد

وقال تعالى: «إِنَّ أُولَئِكَ النَّاسُ بِإِبْرَاهِيمَ لَذِلِّينَ أَتَبْعَهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ»^(١). وقال تعالى: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَائِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَيْثَمَا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(٢). وقال تعالى: «وَقَاتَلُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَائِيَّةً تَهْتَدُوا فَلَنْ يَلِمَهُ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَيْثَمَا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(٣) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»^(٤).

وقد ثبت في «ال الصحيح » عن النبي ﷺ : «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَيْرُ الْبَرِّيَّةِ»^(٤). فهو أفضل الأنبياء بعد النبي ﷺ ، وهو خليل الله تعالى.

وقد ثبت في «ال الصحيح » عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)^(٥).

عليه الصلاة والسلام . وإسحاق من ذريته أنبياء بني إسرائيل كلهم وأخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلام ، فصار إسماعيل وإسحاق أخوان وصار أولاد إسماعيل وأولاد إسحاق أبناء العم ، فيكون بني إسرائيل والعرب هم أبناء العم في الأصل ، فعلى هذا يكون جميع الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كلهم من سلالته ، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي ذَرِيرَةِ الْبَرِّ وَالْكِتَابِ» لأن إسماعيل من سلالته نبينا عليه الصلاة والسلام وإسحاق من سلالته جميع أنبياء بني إسرائيل الذين آخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام .

وقوله إن الله اتخاذني : وعلى هذا تكون الخلة لإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فإبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله عليهم الصلاة

(١) سورة آل عمران: آية ٦٨ .

(٢) سورة آل عمران: آية ٦٧ .

(٣) سورة البقرة: آية ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤) رواه مسلم [٢٣٦٩] وأبو داود [٤٦٧٢] والترمذى [٣٣٥٢]

(٥) رواه مسلم [٥٣٢] عن جندب .

وقال : (لو كنت مستخدماً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبياً بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله^(١)). - يعني نفسه - وقال (لا تُبْقِنَ في المسجد خَوْخَةً إِلَّا سَدَتْ إِلَّا خَوْخَةً أَبِي بَكْرَ^(٢)).

وقال : (أَلَا وَإِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَخَذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَخَذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنَّمَا أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ^(٣)).

وكل هذا في «ال الصحيح » وفيه^(٤) أنه قال ذلك قبل موته بأيام، وذلك من قام رسالته، فإن في ذلك قام تحقيق مخلالته لله التي أصلها محبة الله تعالى للعبد ومحبة العبد لله، خلافاً للجهمية^(٥).

والسلام . وهذا أفضل الرسل وأفضل الخلق ، ونبينا محمد ﷺ أكمل الخليلين ، أكمل وأفضل من جده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، ويليه جده إبراهيم في الفضيلة فكلاهما خليل الله ، وأما زعم بعض الناس - كما سيبين المؤلف - أن إبراهيم خليل الله ومحمدًا حبيب الله ، فهذا ضعيف وليس بصحيح ، لأن الخلة كمال للمحبة ، وهي أعلى مراتب المحبة و تستلزم من العبد كمال العبودية لله ، والمعنى أن إبراهيم الخليل وصل إلى كمال العبودية لله عز وجل ، وهذا يستلزم كمال الربوبية .

وفي ذلك تحقيق توحيد الله ، وأن لا يعبدوا إلا إياه ، فالخلة والمحبة صفتان لله كسائر صفاته التي تليق بجلاله وعظمته ، لكن تستلزم كمال الربوبية من الرب ، أما بالنسبة للمخلوق إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام وهما خليلي الله ، الخلة لهما تستلزم كمال العبودية منهمما لله عز وجل .

(١) رواه البخاري [١٠ / ١٠] و مسلم [٢٣٨٢].

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) رواه مسلم [٥٣٢].

(٤) أي في الحديث نفسه [قبل أن يموت يخمس].

(٦) انظر درء تعاضي العقل [٦ / ٥٩].

وفي ذلك تَحْقِيق توحيد الله أن لا يبعدوا إلا إِيَّاه ردا على أشباه المشركين.
وفيه رد على الرافضة الذين يخسون الصديق رضي الله عنه حقه، وهم أعظم المتسبين
إِلَى القبلة إِشْرَاكًا بِعِدَادَة عَلَيْهِ وَغَيْرِه مِنَ الْبَشَرِ.

وقوله فيه رد على الرافضة: وجه كون الرافضة أعظم المتسبين إلى القبلة
إِشْرَاكًا أن الرافضة يعبدون آل البيت ويتوسلون بآل البيت ويزعمون أن النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نص على اثني عشر إماماً بعده وأن أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن بن
علي ثم الحسين بن علي، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي
الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن
موسى الرضا، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم
الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن الخلف الحاجة المهدى المنتظر
الذى دخل سردار سمراء في سنة ستين ومائتين وما خرج إلى الآن، يقول
شيخ الإسلام بلغ أربعين سنة وما خرج، ونحن الآن نقول له مائتان وألف سنة
وما خرج، وهم في أوقات معينة من كل سنة يأتون بدابة ويقفون على باب
السردار وينادون بصوت جمهوري يا مولانا اخرج، يا مولانا اخرج. هكذا
ذكره شيخ الإسلام وذكره غيره وأخبرني بعض الإخوان الطيبين من أهل البلاد
هناك أنه إلى الآن يُفْعَل ذلك، وهناك أناس يقفون في هذا الوقت في أماكن من
الدنيا ويعيده عن المشهد ولا يصلون بعضهم في الشرق وبعضهم في الغرب
وبعضهم في المدينة وفي غيرها لا يصلون يقولون تخشى أن يخرج المهدى المنتظر
ونحن في الصلاة مشتغلين عن خدمته، هذا من جهلهم - نسأل الله السلامة
والعافية - وهم يتتوسلون إلى الآن كما هو معروف عنهم بآل البيت، بعلي ثم
الحسن، فيقولون: يا حسین يا علی يا کذا يا ولی الله کن لی شفیعاً عند الله،
حتى بعض الحجاج الآن يتتوسلون بهم، يبدأون بعلي حتى ينتهون بالمهدي

والخلة: هي كمال الحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبوه. ولغط العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب، فإنهم يقولون: قلب متيم إذا كان متعبداً للمحظوظ.

والمتيم: المتعبد.

وتيم الله: عبد الله، وهذا - على الكمال - حصل لإبراهيم ومحمد ﷺ.

ولهذا لم يكن له ﷺ من أهل الأرض خليل، إذا الخلة لا تتحمل الشركة.

المتظر ، ويتسلون بهم واحداً بعد واحد ، فهذا لا يخفى أنه شرك أكبر لأنه عبادة لهم من دون الله ، وكذلك دعواهم أن القرآن طار ثلثيه هذه رده نسأل الله العافية - ومن ادعى منهم هذا كان كافراً ومرتدًا لأن هذا مصادم لقول الله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ إِنَّا لَهُ حَافِظُونَ﴾، وكذلك سب الصحابة كلهم واعتقاد كفراهم ، لأن هذا سب للدين الذي حملوه ، فإذا كان الذين حملوا الدين كلهم كفاراً وكلهم فسقه فكيف يوثق بهذا الدين .

وقوله وتيم الله: إذا لا يتسع القلب لأكثر من خليل فإن الخليل هو الذي امتلاً قلبه بخلة خليله ، فنبينا عليه الصلاة والسلام امتلاً قلبه بخلة الله عز وجل ، وليس فيه متسع لأحد ، ولو كان فيه متسع لكان لأبي بكر ، لكن ما فيه متسع ولهذا قال النبي ﷺ (لو كنت متخدنا من أهل الأرض خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً) يعني لو كان في قلبي متسع لكان لأبي بكر ، ولكن قلبي امتلاً بخلة الله عز وجل . لكن القلب يحب أكثر من واحد يتسع القلب لمحبة كثيرين ، ولهذا كان النبي ﷺ يحب كثيرين يحب عائشة ويحب الحسن والحسين ويحب أسامة ويحب أبا بكر ويحب غيرهم ، أما الخلة فما اتسع قلبه إلا خلة الله عز وجل ، والخلة لا تقبل الشركة ، هذا بالنسبة للمخلوق وهو نبينا عليه الصلاة والسلام ،

فإنه كما قيل في المعنى:

قد تخللت مسلك الروح مني

وبذا سمي الخليل خليلاً

بخلاف أصل الحب، فإنه عليه السلام قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامه: «اللهم إني أحبهما فأأحبهما، وأحب من يحبهما»^(١) وسأله عمرو بن العاص: «أي النساء أحب إليك؟» قال: عائشة.

قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها. وقال لعلى رضي الله تعالى عنه: «لأعطيين الراية غداً رجالاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»^(٢) وأمثال ذلك كثير.

وقد أخبر تعالى أنه: «يحبُّ الْمُتَقِّنِ»^(٣). «يحبُّ الْمُخْسِنِ»^(٤). «يحبُّ الْمُقْسِطِينَ»^(٥). و: «يحبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(٦). و: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ مُقْتَلًا كَانُوكُمْ بُنْيَانَ مَرْصُوصٍ»^(٧). وقال: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُمْ»^(٨).

أما الخلة بالنسبة لله فوصف يليق بعظمته وجلاله، لكن من مستلزماتها تحقيق
الربوبية للخليل :

(١) رواه البخاري [٢٧٣٥]، [٣٧٤٧].

(٢) أخرجه البخاري [٣٠٠٩]، [٣٧٠١]، [٤٢١٠].

(٣) سورة آل عمران: آية ٧٦.

(٤) سورة البقرة: ١٩٥.

(٥) سورة الحجرات: ٩.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

(٧) سورة الصاف: آية ٤.

(٨) سورة المائدة: آية ٥٤.

فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له، حتى قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًا لِّلَّهِ﴾^(١).

أما الخلة فخاصة، وقول بعض الناس: إن محمدًا حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وظنه أن الحبة فوق الخلة، قول ضعيف فإن محمدًا أيضًا خليل الله، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة المستفيضة.

وما يروى أن العباس يحشر بين حبيب وخليل، وأمثال ذلك، فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يعتمد عليها.

وقد قدمنا أن محبة الله تعالى هي: محبته ومحبة ما أحب، كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»^(٢).

أنبأ النبي ﷺ أن من كان فيه هذه الثلاث، وجد حلاوة الإيمان، لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع الحبة له، فمن أحب شيئاً أو اشتراه، إذا حصل له به مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، وللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملام الذي هو الخوب أو المشتهي.

ومن قال: إن اللذة إدراك الملام - كما يقوله من يقول من المثلففة والأطباء^(٣) - فقد غلط في ذلك غلطًا بينا، فإن الإدراك يتوسط بين الحبة واللذة، فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام،

وقوله وما يروى أن: أي أن ما يروي من آية العباس يعني ابن عبد المطلب يحشر بين حبيب وخليل ، والحبيب هو محمد ، وبين خليل وهو إبراهيم هذا كذب ، لأن محمدًا أيضًا خليل عليه الصلاة والسلام فمحمد وإبراهيم كلاهما خليل الله .

وقوله وهكذا جمیع ما يحصل : يعني حلاوة الإيمان التي تتضمن اللذة والفرح بما يجده المؤمن تتبع كمال المحبة ، وهذا الحلاوة التي تتبع كمال المحبة

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥ . (٢) سبق التخريج .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل [٦/٦٩/٧٥] للمصنف .

فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة، فاللذة تتبع النظر إلى الشيء، فإذا نظر إليه التذ به. واللذة التي تتبع النظر ليست نفس النظر، وليس لها رؤية الشيء، بل تحصل عقيب رؤيته.

وقال تعالى: **«وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيَ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ»**^(١).

وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والألام: من فرح، وحزن، ونحو ذلك يحصل بالشعور بالحبوب، أو الشعور بالمكره، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن. فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح بما يجده المؤمن الواحد حلاوة الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه الحبة، وتفریغها، ودفع ضدها. فتكميلها:

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكفي فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم. وتفریغها:

تكون بثلاثة أمور تكميل المحبة وتفریغها عما سواه ودفع ضدها عما سواه، أولاً يحتاج إلى تكميل هذه المحبة وتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وتفریغها أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، ودفع ضدها أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار، الأمور الثلاثة ذكرها النبي ﷺ تتضمن حصول الحلاوة التي تتبع كمال محبة الله، فالذي يحب الله ورسوله أحب مما سواهما والذي يحب المرء لا يحبه إلا لله والذي يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه يحصل له كمال المحبة وتحصل له حلاوة الإيمان لأن كمال المحبة وفرّغها ودفع ضدها).

(١) سورة الزخرف: آية ٧١.

أن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

ودفع ضدها:

أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراحته للإلقاء في النار.

فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله، وكان رسول الله ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم الله، لأنَّه أكمل الناس محبة لله، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله ويفضُّل ما يفضله.

والخلة ليس لغير الله فيها نصيب، بل قال: (لو كنت متخدًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً^(١)). علم مزيد مرتبة الخلة على مطلق الخبرة.

والمقصود: هو أن الخلة والخبرة لله: تحقيق عبوديته.

وإنما يغفلط من يغفلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط، لا محبة معه، وأن الخبرة فيها انبساط في الأهواء أو إدلال لا تتحمله الروبيبة، ولهذا يذكر عن ذي التون. أنهم تكلموا عنده في مسألة الخبرة فقال: أمسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها.

وقوله: أن يحب المرء: لأنَّه إذا صارت محبوباته كلها تابع لمحبة الله، فرغ المحبة ما يشوبها فصارت كل المحبة لله، يحب الله ويحب ما يحبه الله من الأنبياء والصالحين، فإذا كانت المحبوبات الأخرى كلها تابعة لمحبة الله فمعناه أنه فرغها من غيرها، ثم يدفع ما يصادها بأن يكره الكفر كما يكره الإلقاء في النار.

وقوله الخلة ليس: لأن الخلة آخر مرتبة في المحبة فهي نهاية المحبة، والمحبة كما سبق مراتب: أولها العلاقة ثم الصبا به والغرام . . . إلخ ثم النهاية وكمال مراتبها الخلة، وهي آخر مرتبة في المحبة، فالخلة هي كمال المحبة ونهايتها.

(١) سبق تخريرجه.

وكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في الخبرة بلا خشية.
وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيٌّ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري. ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

وقوله قال من قال من السلف: الناس أقسام أربعة: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق متخلل من الديانة، يدعى أنه يعبد الله بالحب، لكن ما يخاف الله ولا يرجوه ولهذا يذكر عن بعض الصوفية - كما في كتب الوعظ - وينسب إلى رابعة العدوية أنها قالت: ما عبدت الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته فأكون كأسير السوء، وإنما عبدته حباً لذاته وشوقاً إليه. تقول أنا لا أعبده خوفاً وطمعاً، لأنني إذا عبدته خوفاً وطمعاً أكون مثل الإنسان التفيعي، ما يعبده إلا لأجل شيء ينفعه، بل أنا أعبده حباً لذاته فقط ما لا خوف ولا رجاء، حتى قال بعضهم إنه يحب العذاب ويحب العذاب ويحب النار، فقيل له لم؟ قال: لأنني إذا تمتعت بالجنة معناه صارت تميل نفسي إليه، فكان مع هواه، أما إذا عذب في النار صار مخالفًا لهواه فهو يرغب في عذاب النار، نسأل الله السلامة والعافية.
وهذه تقول ما عبدت الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته فأكون كأسير السوء، والله تعالى أخبر عن أئبياته ورسوله لما ذكر الأنبياء إبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وزكريا ويعقوب وعيسى قال «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً» خوفاً ورجاء، ويدعون ربهم خوفاً وطمعاً، لابد أن تعبد الله بالحب وبالخوف والرجاء، ومن عبد الله بالخوف وحده فهذا حروري، على طريقة الحرورية الخوارج، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيٌّ، ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن موحد، وهذا يوجد في كتب الوعظ وللصوفية كثير.

ولهذا وجد في المتأخرین من ابسط في دعوى الخبة، حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التي تألفي العبودية، وتدخل العبد في نوع الريوية التي لا تصلح إلا لله، فيدعي أحدهم دعوى تجاوز حدود الأنبياء والمرسلين، أو يطلب من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، لا يصلح للأنبياء ولا المرسلين.

وهذا باب وقع فيه كثیر من الشیوخ ومبیه ضعف تحقیق العبودیة التي بينها الرسل، وحددها الأمر والنهی الذي جاءوا به بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته وإذا ضعف العقل، وقل العلم بالدين، وفي النفس محة طالثة جاملة، ابسط النفس بمحقها في ذلك، كما يبسط الإنسان في محة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول : أنا محظ فلأواخذ بما فعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل.

فهذا عین الضلال وهو شیء يقول اليهود والنصاری ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُ﴾^(۱).

قال الله تعالى : ﴿فَلِمَ يَعْذِبُكُمْ بِذَنْبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقِي يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فلن تعذيه لهم بذنبهم يقتضي أنهم غير محبوين ولا منسوبيين إليه بنسبة البنوة بل

وقوله وهذا باب : وهؤلاء الشیوخ الذين يقصدهم المؤلف هم شیوخ الصوفیة، وهذه هي دعواهم ، قوله (هذا هو السبب) أي السبب ضعف تحقیق العبودیة عندهم التي تحریرها الأمر والنهی ، أي أوامر الله ونواهیه ، بل ضعف العقل ، فحصل عندهم ضعف العبودیة وضعف العلم وضعف العقل ، فصدرت منهم هذه الأقوال السیئة والأفعال السیئة .

وقوله وإذا ضعف : أي أن هذه دعوى باطلة ، فقوله إنه لا يؤخذ بما يفعله يعني أنه محظ لله فلا يؤخذ به بالمعاصي ، وهذه كقول اليهود والنصاری ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُ﴾ ، قال الله رداً عليهم ﴿فَلِمَ يَعْذِبُكُمْ بِذَنْبِكُمْ﴾ . ليكون العدوان : سبباً لبغض المحبوب له ، ونفوره عنه ، بل سبباً لعقوبته .

(۱) سورة المائدة : آیة ۱۸ .

يقتضى أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه، ومحبوبه لا يفعل ما يغضنه الحق ويستخطه من الكفر والفسق والعصيان، ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتوب منها فإن الله يغضنه ذلك، كما يحب منه ما يفعله من الخير، إذ جه للعبد بحسب إيمانه وتقواه.

ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان عذلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه لصحة مزاجه.

ولو تدبر الأحمق ما لعن الله في كتابه من قصص أبیائه وما جرى لهم من التربة والاستغفار وما أصيوا به من أنواع البلاء الذي فيه تحيص لهم وتطهير بحسب أحوالهم علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقاماً.

وقوله ومن ظن أن: هذا من غرور الشيطان وزعم بعض الصوفية، أن الذنوب لا تضره، يقول أنا بلغت مرتبة عند الله وأنا محظوظ لله فلا تضرني الذنوب ولا المعاشي ولا التقصير في الواجبات، مثل البحر لا يضره ما تضع فيه من النجاسة ولا تقدر الدلاء، ويقول. أنا وصلت إلى الله وبلغت درجة من المحبة لا تضرني معها المعاشي، وهذا من غرور الشيطان، واستحوذه عليهم مثل من يقول إنه يتناول السم ولا يضره لأن مزاجه صحيح وعنه منعة وقوة، وهذا لا يقول به عاقل.

وقوله ولو تدبر: نعم لو تدبر قصة آدم عليه الصلاة والسلام **﴿وعصى آدم ربه فغرى ثم اجتباه ربه فتاب عليه﴾**، وأدّم نبي، وكذلك قال الله عن موسى **﴿لربِّي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إله هو الغفور الرحيم﴾**، وقال عن داود عليه السلام **﴿فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب﴾**، وقال عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام **﴿إنا فتحنا لك فتحنا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾** **﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾** فكيف يقول هؤلاء الصوفية إنهم لا تضرهم الذنوب،

فإن الحب للملائكة إذا لم يكن عارفاً لمصلحته ولا مریداً له بل يعم بمقتضى الحب وإن كان جهلاً وظلماً كان ذلك سبباً لبغض المحبوب له وتغوره عنه بل لعقوبته.

وكتير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين. إما من تعدد حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها.

كقول بعضهم: أي مرید لي ترك في النار أحداً فأننا بريء منه. فقال الآخر: أي مرید لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأننا منه بريء.

فالأول: جعل مریده يخرج كل من في النار.

والثاني: جعل مریده يمنع أهل الكبار من دخول النار.

والأنبياء أرفع الناس مقاماً ومع ذلك أخبر الله أنهم ممحضوا وأنهم ظهروا وأن الله تاب عليهم.

وقوله: فإن الحب: وهذا واقع إذا كان يعم بمقتضى هواه، ولو كان جهلاً وظلماً فلا يكون هذا سبباً في محبة الله بل يتسبب في بغضه وعقوبته إما في الدنيا أو في الآخرة.

وقوله وكثير من: يعني بالسالكين هنا الصوفية، فهم يسمون سالكين لأنهم سالكون إلى الله بزعمهم. وهذا الذي ادعوه من استحواذ الشيطان عليهم، بعضهم يرى أنه إذا وصل إلى مرتبة من العلم وعلم أن ما قدر سيكون وألغى صفاتيه وجعلها صفة الله سقط عنه التكليف ولا يبالى ولا تضره المعاصي، والمعاصي للعامة أما هو فهو من الخاصة الذين لا تضرهم المعاصي، هذا من استحواذ الشيطان عليهم، يضييع حقوق الله ويتعذر حقوق الله ويقول إنه لا يضره هذا، وتصدر منه هذه الدعاوى الباطلة وهذه الأقوال التي سيذكرها المؤلف رحمة الله.

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيمة نصب خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد.
وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين. وهي إما كذب عليهم،
وإما غلط منهم.

وقوله كقول بعضهم: هذه كلها أقوال كفرية نسأل الله العافية، (أي مرید
لي) يقصد ربه (أي مرید لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنما منه برأء)
يعني تبراً من الله.

والثاني يقول: أي مرید لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنما منه
برأء، تبراً من الله.

والثالث كذلك ادعى أنه إذا كان يوم القيمة نصب خيمته على جهنم حتى
لا يدخلها أحد. وهذه الأقوال كفرية.

لكن المؤلف يرحمه الله يقول: إن هذه الأقوال أحياناً تصدر منهم وقد
حصل لهم حالة سكر وغيبة وفنا، أي من شدة الشهود حصل له غيبة فتصدر
منه هذه الأقوال وهو ما عنده عقل ولا عنده تمييز فيكون من جنس المجانين
فيكون معدوراً لأنه مرفوع عنه القلم، وإلا لو قالها ومعه عقله يكون كافراً،
لكن المؤلف رحمه الله يقول قد تصدر منهم هذه الأقوال والواحد عنده غيبة
بسبب السكر والاصطلام والمحو والجمع من شدة الشهود ينسى كل شيء حتى
ينسى نفسه، حتى إن بعضهم من شدة شهوده لربه بزعمه ينسى كل شيء ولا
يتحرك وتقع عليه الطيور ولا يتحرك ولا يعقل شيئاً، ويغضب عينه ويدعى أنه
تحصل له أنوار وهي أنوار شيطانية، هكذا تستحوذ عليهم الشياطين، فهذه
الأقوال أقوال كفرية، من قالها وعقله معه فهو كافر مرتد لأنه تبراً من الله
وادعى أنه يتصرف يوم القيمة نسأل الله العافية.

قوله وإنما كذب: ما حصل إما كذب عليهم وإنما غلط منهم بسبب قوة
الشهود والغيبة التي حصلت لهم وعدم التمييز.

ومثل هذا قد يصدر في حال سكر وغيبة وفباء.

يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتى لا يدرى ما قال.

والسكر هو لذة مع عدم تمييز.

ولهذا كان من هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام.

كان هذا أصل مقصدهم، فإن هذا الجنس يحرك ما في القلب من الحب كائناً ما كان ولهذا أنزل الله محة يتحن بها الحب فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتَبِعُنِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ أَكْبَر﴾^(١).

وقوله ومثل هذا: هذه أحوال الصوفية، السكر يعني السكر من شدة الحب، يسكر حتى ينسى نفسه، وغلبه الفباء أي كونه يفني نفسه في ربه ولا يحصل له تمييز بين الخالق والمخلوق نسأل الله السلامة والعافية، وهذه أحوال الصوفية. قوله يسقط فيها: وإذا سقط التمييز صار مجنوناً ورفع عنه القلم لأنه ما يعقل.

وقوله ولهذا كان: إذا صحا وزال عنهم السكر زالت عنه الغيبوبة استغفر.

وقوله والذين توسعوا: فمن جهلهم أنهم يتسعون في سماع القصائد التي تتضمن الحب والشوق واللوم والعذل والغرام، يتبعدون لله بسماع القصائد والغناء، الذي فيها الشوق والحب واللوم والغرام و يجعلون ذلك عبادة.

وقوله فإن هذا: وهذه الآية تسمى آية المحتلة والاختبار ادعى أناس أنهم يحبون الله فاختبرهم، فأخبر الله أن ميزان ذلك اتباع الرسول فمن ينطبق عليه

(١) سورة آل عمران: آية ٣١.

فلا يكون محبًا لله إلا من يتبع رسوله.

وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية. وكثير من يدعى المحبة يخرج عن شريعته وستته ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ويدعى من الحالات ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره. حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتخليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالففة شريعة الرسول وستته وطاعته. بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله، الجهاد في سبيل الله. والجهاد يتضمن كمال معبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه. ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿وَأَذْلَلُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا إِيمَانٍ﴾^(١).

الميزان فهو محب لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ﴾، فمن اتبع الرسول فهو صادق في المحبة، ومن خالف الرسول ﷺ فهو كاذب في الصحبة واتباع الرسول ﷺ بالتزام ما جاء به من الشريعة فامثل أوامر الله وأخلص أعماله لله، وأخلص الدين لله، وأدى فرائض الله، وانتهى عن محارم الله، ووقف عند حدود الله واستقام على دين الله، فمن كان كذلك فهو صادق في محبته ومن خالف ذلك فهو كاذب.

وقوله فلا يكون محبًا: يعني: أنه يظن أنه من الخاصة، إذا وصل إلى مرتبة العلم وإلى حالة يلغى صفاتيه و يجعلها لله و يلغى أفعاله و يجعل الأفعال لله صار من الخاصة و سقط عنه الأمر والنهي ما عليه أوامر ولا نواهي ولا طاعات ولا معاراضي وصل إلى الله ويستدل يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَاعْبُدُ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِين﴾ يفسرون اليقين بالعلم، فال خاصة وصلوا إلى العلم ولا يكون عندهم تكاليف لا أوامر ولا نواهي، لا طاعات ولا معاراضي، كل ما يفعلونه فهو مباح لهم نعوذ بالله، ومن اعتقاد هذا فهو مرتد يستتاب فإن تاب وإن قتل.

وقوله: جعل أساس محبته: نعم الجهاد في سبيله هو أساس المحبة لأن المجاهد يبذل نفسه وما له عز وجل، والدعوة إلى دينه، فهو يقاتل ويبذل مهجته ويبذل نفسه لإعلاء كلمة الله، وهذا هو الأصل وأساس المحبة لله

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم.

وأكمل هذه الأمة في ذلك هم أصحاب محمد ﷺ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل.

ولرسوله، وهذه هي المحبة لله حقيقة.

وقوله ولهذا كانت : بين المؤلف رحمة الله أن محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها من الأم وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم من الأم ، وما ذاك إلا لأن نبي هذه الأمة أفضل الأنبياء ، وهذه الأمة أفضل الأم .

فنبينا محمد ﷺ أكمل الناس محبة له ، وهو أكملهم عبودية له ، وهذه الأمة أكمل الأم محبة لله وأكملهم عبودية لله عز وجل .

وقد بين المؤلف رحمة الله أن اتباع الشريعة والجهاد في سبيل الله من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه وبين من يدعى المحبة ، وقد سبق قوله تعالى : ﴿فَلْئَمَنْ كُتُّمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّنُكُمُ اللَّهُ﴾ تسمى آية المحنـة ، فقد ادعى قوماً محبة الله فامتحنـهم الله بهذه الآية . وبين المؤلف رحمة الله أن الدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه ، وهو تحقيق محبة الله وأن كل عمل لا يوافق شرع الله فإنه لا يكون لله ، ولا يكون لله إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله ، وبين المؤلف رحمة الله أن الشرك غالب على النفوس وكما في الحديث أنه أخفى من دبيب النمل ، وأن من الشرك الخفي اتباع الهوى مثل محبة المال ومحبة الجاه ومحبة الصور إلى غير ذلك ، وخلاصة ما سبق أن المؤلف بين الحديث الذي فيه أن حرص الإنسان على المال والشرف لا ينقص في إفساد الدين عن إفساد الذئبين الجائعين اللذين أرسلـا في

زربية غنم . وبين المؤلف رحمة الله أن إبراهيم وآل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام هم أئمة الخنفاء ونبينا ﷺ من آل إبراهيم ، وأن فرعون وآل فرعون هم أئمة الكفر والضلال ، ومنهم الاتحادية الذين يقولون إن الوجود واحد ، وهم على دين فرعون وعلى مذهب فرعون ، ثم بين المؤلف رحمة الله مسألة الفناء ، وتقسيم الناس للفناء عند الصوفية ، والفناء كلمة يعنون بها تجريد شهود الحقيقة الكونية والغبية عن شهود الكائنات ، ويقسمونها إلى ثلث أقسام : الفناء عن وجود السوى ، والفناء عن شهود السوى ، والفناء عن مراد السوى ، فالفناء عن وجود السوى يفني عن وجود ما سواه ، وأصل كلمة الفناء في اللغة عند الإنسان يفني مادة في مادة ، فإذا وضعت الدقيق في ماء ثم ذاب صار مادة أخرى ، تفني مادة في مادة .

وأصطلاح الصوفية على أن المراد بالفناء هو تجريد شهود الحقيقة الكونية والغبية عن شهود الكائنات ، فالفناء عن وجود السوى معناه أن ينكر ما سوى الله ، هذا هو مذهب الاتحادية القائل بوحدة الوجود يفනون المخلوق في الخالق فليس هناك خالق ولا مخلوق بل الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق ، هذا فناء الملاحدة .

والثاني الفناء عن شهود السوى : يعني أنه يغيب عن المخلوقات ولا ينظر إلا إلى الله لثلا تشوش عليه طريقه وسلوكه إلى الله ، فهذا ما ينكر المخلوقات وإنما ينكره من الشهود ولا ينكره من الوجود حتى لا تشوش عليه وتحصل لبعضهم غيبة ويسمون هذا اصطدام وسكر ومحو وجع . وقد يقوى شهود القلب وتقوى الغيبوبة عند بعضهم حتى ينسى كل شيء وينسى نفسه ولا ينظر إلا إلى محبوبه حتى يظن أنه أتحد بمحبوبه وامتزج به ، ومن ذلك أن بعض

فأين هذا من قوم يدعون الخبرة.

وفي كلام بعض الشيخ: الخبرة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب.

وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده. فظنوا أن كمال الخبرة أن يحب العبد كل شيء، حتى الكفر والفسق والعصيان!! ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود، بل يحب ما

المحبين من شدة ولعه بمحبوبه صار كأنه مغناطيس يجذبه فلما سقط المحبوب في الماء سقط وراءه، قال أنا سقطت ما الذي أوقعك في الماء؟ قال: غبت بك عنى فظننت أنك أنت أبى، جذبتكني ما استطيع أنا في غيبوبة غبت بك عنى فظننت أنا.

وأما الثالث: الفناء عن مراد السوى، يعني أنه يلغى مراد نفسه لمراد الله فيقدم محبة الله على محبة النفس ويقدم مراد الله ومحبوبات الله على مراد النفس ومحبوبتها وشهواتها، وهذا فناء خواص الأولياء والمقربين، يقول شيخ الإسلام رحمه الله إن كان هناك فناء صحيح فهو هذا الفناء، ومن ذلك كلمة التوحيد لا إله إلا الله فيها فناء وبقاء، فالفناء لا إله تفني ما سوى الله يعني تنفي ما سوى الله من العبودية وإلا الله وتبقي الله سبحانه وتعالى فهو المعبد بالحق.

وقوله فأين هذا: يعني يدعون المحبة من دون عمل؛ من اتباع لرسول الله ﷺ، وجهاد في سبيل الله، وعلى ذلك فهذه الدعاوى لا تنفع فلا بد لكل دعوى من دليل، ولهذا من أدعى محبة الله فليعمل بقول الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّبُكُمُ اللَّهُ﴾ لأنها تسمى آية المحنـة أي الامتحان والاختبار، فإذا قال إنسان: أنا أحب الله، نقول له عندنا امتحان نختبرك به بأن ننظر عملك إن كنت متابعاً للرسول فأنت صادق وإن كنت لا تتبع الرسول فأنت كاذب في دعواك.

يلاقمه وينفعه، ويغتصب ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال أتباع أهوائهم، ثم زادهم انفاساً في أهوائهم وشهواتهم، فهم يحبون ما يهونه، كالصور، والرئاسة، وفضول المال، والبدع المضلة، زاعمين أن هذا من محبة الله، ومحبة الله بغض ما يغتصبه الله ورسوله، وجهاد أهله بالنفس والمال.

وأصل ضلالهم: أن هذا القائل الذي قال: إن الحبة نار تحرق ما سوى مراد الحبوب، قد صد مراد الله تعالى: الإرادة الكونية في كل الموجودات.

أما لو قال مُؤمن بالله وكبه ورسله، هذه المقالة، فإنه يقصد الإرادة الدينية الشرعية التي هي بمعنى محبته ورضاه، فكأنه قال: تحرق من القلب ما سوى الحبوب لله.

هذه الكلمة صدرت من بعض شيوخ الصوفية، المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب، ووجه الغلط في ذلك أنه أراد بهذه الإرادة الإرادة الكونية، القدرة وكل شيء في الوجود قد أراده الله كونه قدرًا لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، لكن الأشياء التي أرادها كونا وقدرًا بعضها يحبها وبعضها يكرهها، إذ هناك إرادة ثانية تسمى الإرادة الدينية الشرعية، فالذى وقع في الكون من الكفر والفسق والعصيان أراد الله كونه قدرًا، لكن الله لا يرضاه دينا وشرعًا فهو مراد بالإرادة الكونية لما في ذلك لله من الحكم والأسرار لكنه ليس مرادًا للإرادة الدينية الشرعية، فهو لاء الشیوخ أو الصوفية ظنوا أن المراد بالإرادة الكونية القدرة محبوب لله مطلقاً فلما رأوا أن الكفر والفسق والعصيان كلها وقعت قالوا هذه مراده لله محبوبه ولم يفرقوا بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية، وهذا وجہ الغلط، والصواب أن يفرق بين الإرادتين، فهناك إرادتان إرادة كونية قدرية هذه لا يختلف مرادها بل يقع بها كل شيء أراده الله، فكل شيء وقع في هذا الوجود فهو داخل تحت الإرادة الكونية لكن بعد ذلك ينقسم إلى قسمين: قسم مراد لله بالإرادة الدينية الشرعية وهو ما أمر به الله

وهذا معنى صحيح، فإن من قام الحب لله أن لا يحب إلا ما يحبه الله، فإذا أحبت ما لا يحب، كانت الحبة ناقصة وأما قضاها وقدرها فهو يبغضه ويكرهه ويستخطه وينهي عنه، فإن لم أوافقه في بغضه وكراحته وسخطه، لم أكن محبًا له، بل محبًا لما يبغضه.

فاتباع هذه الشريعة والقيام بالجهاد بها من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأولئك الذين يحبهم ويحبونه، وبين من يدعى محبة الله ناظرًا إلى عموم ربوبيته، أو متبعًا لبعض البدع الخالفة لشريعته، فإن دعوى هذه الحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى الحبة لله بل قد تكون دعوى هؤلاء شرًا من دعوى اليهود والنصارى، لما فيهم من التفاق الذي هم به في الدرك الأسفل من النار. كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شرًا من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم.

ورضي به وأحبه شرعاً وقسم ليس مرادًا لله، فلو قال هذا القائل: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب، وأراد الإرادة الدينية فالعبارة صحيحة لكن إذا أراد الإرادة الكونية فقد أخطأ:

وقوله فاتباع هذه: يعني من يدعى محبة الله نظرًا إلى عموم الربوبية من جنس دعوة اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباوْه، هذه دعوة ولهذا قال الله تعالى ردًا عليهم ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباوْه قل فلما يعذبكم﴾ إذا كنتم أحباب الله فاتبعوا شرعه واتبعوا رسوله.

وقوله بل قد تكون: هذا من إنصاف المؤلف رحمة الله، يقول: إن دعوى بعض الصوفية الذين يدعون محبة الله وهم منحرفون في العبادة ولا يتبعون شرع الله من جنس دعوى اليهود أنهم أحباب الله ولا يتبعون رسول الله، لكن أيهم أشر هل الصوفية أشر من اليهود والنصارى أم اليهود والنصارى أشر، قال المؤلف: إذا كان هؤلاء الصوفية الذين يدعون محبة الله منافقون وصلوا إلى الشرك الأكبر يكونوا أشر من اليهود والنصارى، أما إذا كانوا لم

وفي التوراة والإنجيل من الترغيب في محبة الله ما هم متغرون عليه، حتى إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس.

ففي الإنجليل (أعظم وصايا المسيح: «أن تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك»).

والنصارى يدعون قيامهم بهذه الحبة، وأن ما هم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك، وهم براء من محبة الله، إذ لم يتبعوا ما أحبه، بل ﴿أَتَبْعَثُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحَبُّهُمْ أَعْمَالَهُم﴾^(١).

والله يبغض الكافرين ويقتتهم ويلعنهم، وهو سبحانه يحب من يحبه. لا يمكن أن يكون العبد محباً لله، والله تعالى غير محب له، بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له، وإن كان جزاء الله لعبد أعظم. كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله تعالى أنه قال: «من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أثانياً يمشي أيته هرولة»^(٢).

وقد أخبر الله سبحانه أنه يحب المتقين، والحسنين، والصابرين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، بل هو يحب من فعل ما أمر به من واجب ومستحب، كما في الحديث الصحيح: «لا يزال عبدي يتقرب إلى بالتوافق حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره

يصلوا إلى درجة الشرك الأكبر فيكون اليهود والنصارى أشر منهم، وبعض الصوفية منافق زنديق، والمنافق في الدرك الأسفل من النار فيكون شرًا من اليهود والنصارى، لأن المنافقين في دركة في النار تحت دركة اليهود والنصارى فيكون أشر، أما إذا كان نفاقهم لا يصل إلى حد الشرك الأكبر فيكون اليهود والنصارى أشر منهم، وهذا من إنصاف المؤلف رحمة الله تعالى.

(١) سورة محمد: آية ٢٨.

(٢) رواه البخاري [١٣/٢٣٢٥] ومسلم [٢٦٧٥].

الذي يصر به^(١) ... الحديث.

وكثير من المخطئين الذين ابتدعوا أشياء في الزهد والعبادة وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى الحبة لله مع مخالفة شريعته، وترك المعايدة في سبيله، ونحو ذلك، ويتمسكون في الدين الذي يتقررون به إلى الله بتحمّل ما تمسك به النصارى من الكلام المتشابه، والحكايات التي لا يعرف صدق قائلها، ولو صدق لم يكن قائلها معصوماً، فيجعلون متبعوهم شارعين لهم ديناً، كما جعل النصارى قسيسיהם ورهانهم شارعين لهم ديناً. ثم إنهم يتقصون العبودية، ويدعون أن الخاصة يحدونها. كما يدعى النصارى في المسيح والقساوسة، ويشتبهون خاصتهم من المشاركة في الله، من جنس ما ثبته النصارى في المسيح وأمه والقسيسين والرهان إلى أنواع آخر يطول شرحها في هذا الموضوع.

وقوله وكثير من المخطئين: يعني أن بعض الصوفية يشابهون النصارى في أن كلاً منهم يدعى محبة الله ووجه الشبه بينهما أن كلاً من النصارى والصوفية يدعى محبة الله مع كونه يخالف شرع الله ويترك الجهاد في سبيل الله ويتمسكون بما تمسك به النصارى من كلام متشابه ومن حكايات لا تعرف للنصارى يتمسكون بها وكلام متشابه، والصوفية عندهم حكايات، ولو صدق هذا القائل فليس هو بمعصوم مثل الأنبياء، يحكى عن فلان كذا وكذا عبد الله الصالح فعل كذا وكذا عبد الله الصالح حصل له كرامات، فيجعلون متبعوهم مشرعين لهم من دون الله، كما أن النصارى يجعلون قسيسهم كذلك شارعين لهم أشياء يتعدون بها شريعة الله.

(١) انظر: السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني [٤/ ١٨٣ - ١٩٣].

وإنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة، وبقدر تكميل العبودية تكميل محبة العبد لربه، وتكلمت محبة الرب لعبده. وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان في القلب حب لغير الله، كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك. وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك.

وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل. فالدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله^(١) ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع. فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين.

أن يكون لله.

وأن يكون موافقاً لحبة الله ورسوله.

وقوله إنما الدين الحق: هكذا يكون الدين الحق تحقيق العبودية لله بكل وجه، وتحقيق العبودية لله هو تحقيق محبة الله، فمن حقق عبودية الله فقد حقق محبة الله، ومن نقص تحقيقه للعبودية نقصت محبته لله، وبقدر تكميله للعبودية تكن محبة الله وبقدر نقصه من العبودية تنقص محبته لله وهكذا، وبهذا يتبيّن أن دعوى محبة الله من غير ذلك لا يعول عليها ولا تفيّد صاحبها إذ لا بد من الدليل على الدعوى، والدليل تحقيق عبودية الله.

قوله إلا ما جمع الوصفين: وهذا الوصفان هما أصل الدين، وهما أن يكون لله. وهذا هو الإخلاص لله وهو تحقيق شهادة إلا إله إلا الله، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله، وهذا الأصل الثاني، وهو أن يكون عمله موافقاً لشرع الله وهو تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، فلا يصلح أي عمل إلا

(١) وقد صح هذا العنوان مرفوعاً عن النبي ﷺ رواه الترمذى [٢٣٢٣] وابن ماجه [١١٢].

وهو الواجب والمستحب، كما قال تعالى: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**^(١).

فلا بد من العمل الصالح، وهو الواجب والمستحب، ولا بد أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، كما قال تعالى: **﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ إِذْ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون﴾**^(٢).

وقال النبي ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٣).

وقال النبي ﷺ : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَ هَجَرَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَ هَجَرَهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةً يَتَرَوَّجُهَا

بهذين الأمرين، أن يكون العمل خالصاً لله، وأن يكون موافقاً لشرع الله، ولا يصح إلا بهما. والأدلة على هذا كثيرة كما سيدرك المؤلف.

وقوله وهو الواجب: فالعمل الصالح هو المواقف لشرع الله، **﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** وهذا هو الإخلاص لله.

وقوله فلا بد: الآية فيها الأصلان **﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾** هذا إخلاص العمل لله، **﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾** هذا المواقف لشرع الله، فالعمل الحسن المواقف لشرع الله.

وقوله من عمل عملاً: هذا يقرر الأصل الثاني وهو تحقيق شهادة أن محمد رسول الله، وهو أن يكون العمل موافقاً لشرع الله، وفي الصحيحين (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد).

وقوله إنما الأعمال: هذا أيضاً يحقق الأصل الأول وهو أن يكون العمل لله «إنما الاعمال بالنيات»، الاعمال لا تصح إلا بالنيات، والأعمال تبني على

(١) سورة الكهف: آية ١١٠ .

(٢) سورة البقرة: آية ١١٢ .

(٣) رواه البخاري [٢٦٩٧] ومسلم [٧١٨].

فهجرته إلى ما هاجر إليه^(١).

وهذا الأصل هو أصل الدين، ويحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرسول، وعليه جاهد، وبه أمر، وفيه رغب، وهو قطب الدين الذي يدور عليه رحاه.

والشرك غالب على النفوس، وهو كما جاء في الحديث: «هو في هذه الأمة أخفى من ديب النمل»^(٢) «وفي حديث آخر: (قال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه، وهو أخفى من ديب النمل؟ فقال النبي ﷺ لأبي بكر: ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله. قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفر لك لما لا أعلم»^(٣). وكان عمر يقول في دعائه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وكثيراً ما يخالط النقوص من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعباديتها له، وإخلاص دينها له، كما قال شداد بن أوس. يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهرة الخفية^(٤).

وقيل لأبي داود السجستاني. وما الشهرة الخفية؟ قال: حب الرئاسة.

وعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذُبَاب جانحان أرسلا في زرية غنم بأفسد

النیات فإن كانت النية خالصة لله صحيحة العمل.

وقوله: وهذا أصل الدين وأصل الملة، وهو أن يكون العمل خالصاً لله، ثم أيضاً لا بد أن يكون موافقاً لشرع الله حتى لا يكون فيه بدعة وأهواء.

(١) أخرجه البخاري (١)، (٥٤)، [٢٥٢٩] ومسلم [١٩٧] عن عمر رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريرجه.

(٣) تقدم تخريرجه.

(٤) وقد صح هذا مرفوعاً رواه البيهقي في الزهد [ص ١٩٣] وأبو نعيم في الحليله [١٢٢/٧].

لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه^(١). قال الترمذى: حديث حسن صحيح. فبين ﷺ أن الحرص على المال والشرف، في إفساد الدين، لا ينقص عن إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم.

وذلك يبين أن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبودية الله ومحبته له، لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله - السوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِتُصْرِفَ عَنِ الْسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢). فإن الخلوص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه

وقوله أن الحرص: يبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن حرص الإنسان على المال وحرصه على الجاه والشرف والمنصب يفسد دينه كما يفسد الذئبان الجائعان الذين أرسلا في زريبة غنم، فإنك لو أرسلت ذئبين جائعين على حظيرة غنم، فإنهما لا يتركانها بل لا بد أن يشقا بطنهما كلها ما يأكلان ما يأكلان والباقي يتراكمه فاسداً، فالذئب من طبيعته الإفساد، فكيف إذا كانا ذئبين جائعين مضى عليهما مدة ما أكلوا ثم أطلقتهما في زريبة غنم، فإنهما لا بد أن يأتياها على هذه الغنم أكلأً وإفساداً، فحرص الإنسان على المال وحرصه على الشرف والجاه والمنصب يفسد دينه مثل ما يفسد هذان الذئبان الجائعان الغنم إذا أرسلا لزريبتها، والحديث فيه تقديم وتأخير، والمعنى ما ذئبان جائعان أرسلا في حظيرة والحظيرة المكان الذي تكون فيه الغنم، أرسلا في حظيرة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف، أي أن الإفساد من حرص المرء على المال والشرف والجاه لدين الرجل أفسد من إفساد هذين الذئبين.

(١) رواه أحمد [٤٥٦ / ٣] و [٤٦٠] والترمذى [٢٤٨٢] والنمساني كما في تحفة الأشراف [٣١٦ / ٩].

(٢) سورة يوسف آية ٢٤.

عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب السليم أحلٍ ولا أذنٍ ولا أطيب ولا أسرٍ ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاصه الدين كله له.

وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيًّا إلى الله، خائفاً منه، راغباً راهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾^(١). إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه، أو حصول مرهوبه، فلا يكون عبد الله ومحبه، إلا بين خوف ورجاء، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيْمَنُهُ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٢).

وقوله وذلك يقتضي: هذه المحبة الصادقة يلزم منها الخوف والرجاء، فالإنسان يعبد الله بالمحبة والخوف والرجاء، لكن ما يقوله بعض الزنادقة من الصوفية أعبد الله بالحب وحده، وهذا خطأ، وبعض المرجئة يقول: أعبد الله بالرجاء، وكبعض الخارج يعبد الله بالخوف، ولا يكون عبد الله على الحقيقة حتى يكون محبًا لله خائفاً راجياً، والخوف والرجاء لا بد منهما وكل محب فهو خائف وكل خائف فهو راجٍ وكل راجٍ فهو خائف، لأن المحب يخاف من زوال مطلوبه، ويخاف من حصول مرهوبه، فلا بد له من الأمرين كما قال الله تعالى عن عباده ورسله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا﴾، وكما في قوله سبحانه ﴿يَدْعُونَا خَوْفًا وَطَمْعًا﴾، وكما في أول سورة الفاتحة فيها المحبة والخوف والرجاء، وفي أركان العبادة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا هو الركن الأول وهو المحبة، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هذا الركن الثاني وهو الرجاء، ترجو رحمة الله من الرحمن، ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهذا الركن الثالث وهو الخوف،

(١) سورة ق: آية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: آية ٥٧.

وإذا كان العبد مخلصاً لله اجتباه ربه، فأحني قلبه واجذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويغافف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلباً وإرادة وحبّاً مطلقاً، فيهوي كل ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالنفس، أي نسمة مر به عطفه وأمالة، فتارة يجذبه الصور المحرمة، وغير المحرمة فيقى أسيراً عبداً من لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيّاً ونقصاً وذماً.

وتارة يجذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتفضيه الكلمة ويستعبده من يشي عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وقارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخد إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن مخلصاً لله، عبداً له، قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاصعاً، وإن استعبدته الكائنات.

والتخوف من يوم القيمة، ثم بعد ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهذه أركان العبادة كلها ذكرت في مطلع سورة الفاتحة.

وقوله وإذا كان العبد: وسبب ذلك أن هذا القلب الذي لم يخلص لله حصل فيه نقص عظيم، فلما حصل فيه نقص حصلت، هذه العبودية، فالعبودية لغير الله تنقص الإخلاص، فإذا نقص الإخلاص حل محله العبودية لغير الله، عبودية للصور وعبودية للشرف، وعبودية للدرهم والدينار، وعبودية للهوى، فإذا أخلص الإنسان عمله لله لم يحصل له نقص في العبودية لله.

وقوله ومن لم يكن مخلصاً: أي من لم يكن قلبه معبداً لله صار قلبه معبداً لغير الله من المخلوقات ولا بد، فالقلب لا يكون فيه فراغاً إما فيه عبودية لله أو عبودية لغير الله، فإذا كانت العبودية لله كاملة ما صار فيه محل لعبودية غير الله، وإذا كانت العبودية لله ناقصة حل محلها عبودية لغير الله، كالمشرك،

واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الفاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله. وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه.

فالقلب إن لم يكن حينها مقبلًا على الله معرضًا عما سواه، كان مشركًا: ﴿فَأَقْرَمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَيْنِفَا فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣٠) مُنْبِينَ إِلَيْهِ وَأَنْقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعَا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدِيهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٣٢)

خلا قلبه من عبودية الله فحل محلها عبودية غير الله حتى ولو عبد الله وهو يعبد غيره فلا يفيده، والخلصون الذين أخلصوا الله هؤلاء ليس فيهم عبودية لغير الله. ومن الناس من تنقص عبوديته لله فيحل محلها عبودية لغير الله، والناس في هذا يتفاوتون تفاوتاً عظيماً على حسب إخلاصهم وعلى حسب أعمالهم وعلى حسب الشرك الذي يحل في قلوبهم، والمراد الشرك الأصغر والمعاصي وغيرها، ليس المراد الشرك الأكبر لأن الشرك الأكبر زال التوحيد والإخلاص ، فإنهما لا يجتمعان في القلب، ولكن من الممكن أن يجتمع في القلب عبودية لله وعبودية لغير الله لكن فيما هو دون الشرك الأكبر، أما الشرك الأكبر فلا يجتمع في القلب مع التوحيد والإخلاص ، بل بما صدران إذا وجد أحدهما زال الآخر، فإذا وجد التوحيد والإخلاص فلا يجتمعان، لكن الشرك الأصغر مع التوحيد أو المعاصي مع التوحيد يجتمعان.

وفوله فالقلب إن لم يكن: هذا أمر ضروري لا حيلة فيه ، فلا يمكن أن يكون القلب فارغاً، فمن لم يكن حينها مقبلًا على الله معرضًا عما سواه صار مشركاً، وليس هناك بين إلا كما سبق المعاصي والشرك الأصغر فقد تجتمع في القلب مع توحيد الله لكنها تضعف التوحيد والإخلاص .

وقد جعل الله سبحانه وإبراهيم وأل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء اخْلَصُّين أهل محبة الله وعبادته، وإخلاص الدين له.

كما جعل فرعون وأل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواهم.

قال تعالى في إبراهيم **﴿وَرَبُّنَا لَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ نَافِلَةٌ وَكَلَّا جَعَلَنَا صَالِحِينَ﴾**. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) ^(١).

وقال في فرعون وقومه: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ . وَأَبْعَثْنَاهُمْ فِي هَذِهِ النَّيَّا لِعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوشِينَ﴾** ^(٢).

ولهذا يصير أتباع فرعون أولاً إلى أنهم لا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما قدره الله وقضاه، بل ينظرون إلى المشيّة المطلقة الشاملة، ثم في آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والخلوق، بل يجعلون وجود هذا وجود هذا.

وقوله وقد جعل الله: ونبينا محمد ﷺ من آل إبراهيم، فالإله إبراهيم، مقدمهم محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام ثم سائر الأنبياء كلهم أئمة للناس.

وقوله وجعلناهم أئمة: الشاهد في قوله (وجعلناهم أئمة) أي أئمة هدى.

وقوله قال في فرعون وقومه: الشاهد (وجعلناهم أئمة) أي أئمة ضلال، فإبراهيم وأل إبراهيم أئمة هدى، وفرعون وأل فرعون أئمة ضلال.

وقوله ولهذا يصير أتباع: هؤلاء أتباع فرعون فهم أولاً لا يميزون بين القدر وبين الشرع، لا يميزون بين ما قدره الله وما شرعه الله، أي لا يميزون بين القدر

(١) سورة الأنعام: الآيات: ١٥٧ - ١٥٩ .

(٢) سورة القصص آية ٤١ - ٤٢ .

ويقول محققوهم: الشريعة فيها طاعة ومعصية، والحقيقة فيها طاعة بلا معصية، والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية.

وهذا تحيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق، وأنكروا تكليمه لعبدة موسى، وما أرسله به من الأمر والنهي.

وبين الشريعة، فيقولون كل ما قدره الله من الزنا ومن السرقة وغيرها يحبه ويرضاه، يقولون هذه قدرها الله إذا يحبها الله، لا فرق عندهم بين القدر وبين الشريعة أعرضوا عن الشريعة، ثم بعد ذلك في نهاية الأمر يصلون إلى أنه لا يفرقون بين الخالق والمخلوق، يقولون المخلوق هو الخالق والخالق هو المخلوق فكل شيء تراه هو الله لا يميزون، فيصلون إلى القول بوحدة الوجود الذي هو النهاية والغاية في الكفر والعياذ بالله.

وقوله ويقول محققوهم: هذا هو تقسيم الصوفية للناس؛ يقسمون الناس إلى ثلات طبقات، الشريعة فيها طاعة ومعصية، الشريعة لمن؟ يقولون: الشريعة للعامة، فهم يقسمون الناس إلى عامة وخاصة وخاصة خاصة، العامة هم أهل الشريعة عندهم طاعات ومعاصي، ومن العامة عندهم جميع الأنبياء والمرسلين يسمونهم عامة لأن عندهم طاعات ومعاصي، أما الخاصة فليس عندهم معاصي كل ما يصدر منهم فهو طاعات ولو صدر الزنا يكون طاعة أو السرقة تكون طاعة، أو شرب الخمر يكون طاعة، لا توجد المعاصي عندهم، ولكن المعاصي عند أهل الشريعة أما أهل الحقيقة فلا لأنهم الغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفات لله فصار كل ما يصدر من الواحد يعتبره طاعة حقاً كان أو باطلأً حتى الكفر والعياذ بالله.

ثم الطبقة الثالثة: خاصة الخاصة ليس عندهم معاصي ولا طاعات لأنهم وصلوا إلى القول بوحدة الوجود، صار الوجود واحداً هو رب وهو عبد فلا

طاعات ولا معاصي، الطاعات والمعاصي عند أهل الشريعة، وأما أهل الحقيقة فليس عندهم إلا طاعات بدون معاصي، وأهل التحقيق هم خاصة الخاصة فليس عندهم لا طاعات ولا معاصي لأنهم وصلوا إلى القول بوحدة الوجود وهو غاية الكفر تعوذ بالله .

فصل في الفرق بين الخالق والمخلوق

وأما إبراهيم وآل إبراهيم الخلفاء من الأنبياء والمؤمنين بهم، فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق، ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية، وأن العبد كلما ازداد تحقيقاً لهذا الفرق، ازدادت محبته لله وعبوديته له، وطاعته له، وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره، وطاعة غيره.

وهؤلاء المشركون الضالون يسرون بين الله وبين خلقه.

والخليل يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَفَدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّإِلَٰهِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

ويتمسكون بالتشابه من كلام المشايخ كما فعلت النصارى. مثال ذل: اسم «الفناء» فإن الفناء ثلاثة أنواع:

نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء.

نوع للقادرين من الأولياء والصالحين. ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين.

وقوله: وهؤلاء المشركون الضالون: هم الاتحادية يسرون بين الله وخلقه، ويجعلون الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق.

وقوله والخليل يقول: فالخليل عليه الصلاة والسلام فرق وجعل ما يعبدون من دون الله عدواً له، وجعل محبوبه وخليله هو رب العالمين.

الشرح: هذا اسم الفناء مصطلح قاله بعض مشايخ الصوفية، وأصل الفناء في اللغة كما أسلفنا إفناه أحدى المادتين في الأخرى مثل الدقيق والطحين إذا

(١) سورة الشعراء: آية ٧٥-٧٧.

فأما الأول: فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله.

بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب من غيره.

وضعتها في الماء فنيت إحدى المادتين، فصارت مادة واحدة، هذا معناه في اللغة، أما مصطلح الصوفية في الفناء فهو تحقيق شهود الحقيقة الكونية والغيبة عن شهود الكائنات، الحقيقة الكونية ربوبية الله الشاملة لكل شيء ومشيئته النافذة والغيبة أي يغيب ويتناسى ما سوى الله من المخلوقات فلا يشهد لها، ليس لها وجود بل يتناسها حتى لا تشوش عليه ويجعلون الفناء ثلاثة أقسام.

النوع الأول: نوع للكماليين من الأنبياء والأولياء وهو الفناء عن مراد السوي بمعنى أنك تلغى مرادك لمراد الله، وتلغى ما تريده ترغبه نفسك لمراد الله، بمعنى أنك تقدم مراد الله ومحبة الله على مراد نفسك، تحب ما يحبه الله وتبغض ما يبغضه الله وتوالي من يوالى الله وتعادي من يعادى الله وتعطي لله وتنعنه لله وتخاف الله، فيكون دينك ومحبتك لله، فإن كان هناك اسم صحيح للفناء فهذا هو الاسم الصحيح، فيكون هذا الفناء عن مراد السوي معنى صحيح، ويكون هذا للكماليين من الأنبياء والأولياء لأنهم الغوا مرادهم لمراد الله. لكن تسميتها فناء هذا اصطلاح ومثل الكلمة التوحيد لا إله إلا الله فيها فناء وبقاء، لا إله هذا نفي، إلا الله هذا بقاء، فأنت تُنفي من لم يكن وهو المخلوق وتُبقي من لم يزل وهو الله، بمعنى أنك تُنفي عبودية ما سوى الله وتثبت العبودية لله.

النوع الثاني، نوع للقاصررين من الأنبياء والصالحين، وهو الفناء عن شهود السوي بمعنى أن يتناسى ما سوى الله من الشهود ولا يذكره حتى لا يشوش عليه مراده فهذا نوع للقاصررين. والنوع الثالث نوع للكافرين الملاحدة والزنادقة وهو الفناء عن وجود السوي، بمعنى أنه ينكر ما سوى الله، فيقول ليس هناك إلا وجود واحد هو الخالق والمخلوق، وهذا فناء الملاحدة الاتخادية.

وقوله فاما الأول: هذا هو الفناء الصحيح، وتسميتها فناء هذا على سبيل

وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي زيد حيث قال: أريد أن لا أريد إلا ما يريد، أي المراد الخوب المرضي. وهو المراد بالإرادة الدينية.

وكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، ولا يحب إلا ما يحبه الله، كالملاكية والأنبياء والصالحين، وهذا معنى قولهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقُلُبٍ سَلِيمٍ﴾^(١). قالوا: هو السليم مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد.

وهذا المعنى إنْ سمي فناء، أو لم يسم، هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره.

وأما النوع الثاني: فهو الفناء عن شهود السوى.

الاصطلاح.

وقوله وهو المعنى: أي أريد أن يكون مرادي موافقاً لمراد الله ومحبتي موافقة لمحبة الله هذا المعنى صحيح يقول المؤلف يجب أن يحمل كلام أبي زيد البسطامي على هذا فيكون كلامه صحيحاً، فهو يقول أريد إلا أريد إلا ما يريد الله، فالذي يريد الله الرب أنا أريده، والذي لا يريد الله الرب فأنا لا أريده، فالله تعالى يريد من العبد أن يخلص عمله لله وأن يؤدي فرائض الله وأن يتنهى عن محارم الله، وأن يقف عند حدود الله، وأن يستقيم على دين الله، فأنا أريد هذا. والذي لا يريد الله لا أريده.

وقوله وكمال العبد: أي أن كونك توافق الله في محبوباته ومرضياته هذا هو باطن الدين وظاهره وهو دين الإسلام، سواء سميت فناء أو ما سميت فناء.

وقوله وأما النوع الثاني: فالنوع الأول الفناء عن مراد السوى، والثاني الفناء عن شهود السوى، والثالث الفناء عن وجود السوى، والسوى: المراد به: ما

(١) سورة الشعراء آية ٨٩.

وهذا يحصل لكثير من السالكين، فلأنهم لفطر الجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم على أن تشهد غير ما تبعد، وترى غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون به. كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِّي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطَنَا﴾^(١). قالوا: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى.

وهذا كثيراً ما يعرض لمن دھمه أمر من الأمور، إما حب، وإما خوف، وإما رجاء، يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء، إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

فإذا قرئ على صاحب الفناء هذا، فإنه ينipp بوجوده عن وجوده، وبشهوده عن شهوده، وبذكره عن ذكره، وبمعرفته عن معرفته، حتى يفني من لم يكن، وهي الخلوقات، العبد فمن سواه. ويقى من لم ينزل، وهو الرب تعالى.

والمراد فناؤه في شهود العبد وذكرة، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهادها.

وإذا قرئ هذا، ضعف الحب حتى يضطرب في غيظه، فقد يظن أنه هو محبوه، كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه في اليم، فألقى مجده نفسه خلفه. فقال: أنا وقعت، فما أرتك خلفي؟ قال: عنيت بك عني، فظلت أنك أني.

سوى الله.

وقوله وهذا يحصل لكثير: وكما سبق فإن الفناء عن شهود السوى يعني أن شهوده لله ينسيه ما سوى الله، فهو ينسى وجود الله بوجوده، وينسى شهود الله بشهوده، وينسى ذكر الله بمذكوره، ينسى ذكر الله والعبادة لأن قلبه مشغول بشهود مذكوره وهو الله، وهذا كما سبق نوعاً للقاصرين.

وقوله وإذا قرئ هذا: هذا ومن قوة الشهود، من قوة التعلق بالمحبوب صار ينسى نفسه، وصار ينجذب إليه كأنه مغناطيس إذا قام قام وإذا قعد قعد وإذا

(١) سورة القصص: آية ١٠.

وهذا الموضع زلت فيه أقواماً، وظنوا أنه اتحاد، وأن الحب يتحد بالمحبوب، حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهم.

وهذا غلط، فإن الحنائق لا يتحد به شيء أصلاً، بل لا يمكن أن يتحد شيء بشيء، إلا إذا استحالاً وفسدت حقيقة كل منهما، وحصل من اتحادهما أمر ثالث، لا هو هذا ولا هذا، كما إذا اتحد الماء واللبن، والماء والأخمر، ونحو ذلك.

ولكن يتحد المراد والمحبوب والمراد والمكره، ويتفقان في نوع الإرادة والكرامة فيحب هذا ما يحب هذا ويسفه هذا ما يسفيه هذا، ويرضى ما يرضي، ويُسخط ما يُسخط، ويكره ما يكره، ويُوالى من يُوالى ويعادي من يعادى.

وهذا الفناء كله فيه نقص.

وأكابر الأولياء، كأبي بكر وعمر، والسابقين الأوليين من المهاجرين والأنصار، لم يقعوا في هذا الفناء، فضلاً عنهم هو فوقهم من الأنبياء. وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة.

وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل وعدم التمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان.

سقوط سقط بسبب الجذاب القلب.

وقوله وأكابر الأولياء: الفناء عن شهود السوى ما وقعوا فيه لأن المشاهدة هذه كلها نقص.

وكل هذا النقص ما حصل للأنبياء ولا للصحابة ولا لأكابر الأولياء، لكن قد حصل لكثير من التابعين يصير عنده ضعف تمييز حتى الغشيان والغيبوبة، لكن الصحابة عندهم ثبات وقوة وكما قال الله توجل قلوبهم عند ذكر الله ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَتَقْسَمَ عَلَيْهِمْ جَلُودُهُمْ﴾، ولكن ما يحصل لهم غيبوبة، ولكن هذا النقص حصل لبعض العباد في البصرة إذا سمع آية سقط وأغمى عليه فلا يكون عنده تمييز وإن كان هذا بغیر استطاعته واختياره لكن من كان عنده ثبات وتجلد

فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم أو يحصل لهم غشى أو صعق أو سكر، أو فناء أو وله، أو جنون.

وإنما كان مبادى هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت: كأبي جهير الفضرير، وزرارة بن أبي أوفى قاضي البصرة.

وكذلك صار في شيخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه، كما يحكي نحو ذلك عن مثل أبي يزيد وأبي الحسن التورى وأبي بكر الشبلى. وأمثالهم، بخلاف أبي سليمان الدارانى. ومعروف الكرخى، والفضليل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد. وأمثاله من كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم، فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه.

بل الكمال تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به للأمور على ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مدبرة بمشيئته، بل مستجيبة له قاتلة له. فيكون لهم فيها تبصرة وذكري، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً ومدعاً في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لا شريك له.

فيشعر جلده ويلين قلبه من ذكر الله فهذا أثبت من يغمى عليه ولا يميز.

وقوله فإن الصحابة: هذه طريقة الكمال من عبادة الله ومقدمتهم الأنبياء والرسل، ثم الصحابة والتبعون والأئمة والعلماء، كلهم ما يكون عندهم هذا الشهدون الذي يقوله الصوفية بل تكون عقولهم سليمة ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وييزون بين الخالق والمخلوق ويشهدون الخالق على أنه خالق متدير، ويشهدون المخلوقات على أنها مخلوقة مدبرة مسبحة بقدس الله، ويتتصرون ويعتبرون بها وتكون مقوية لما في قلوبهم من إخلاص الدين، بخلاف الصوفية، فإنهم لضعفهم يقولون: أنا ما أتحمل مشاهدته مخلوقات شمس وقمر وليل ونهار وسموات وأراضين كل هذه تشوش عليّ بل أنها لا أنظر إلا إلى الله، وهذا ضعف وعدم ثبات لكن الصحابة والأئمة والعلماء يشهدون

وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل التحقيق الإيّان والكميل من أهل العرفان، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السموات وعاين ما هنالك من الآيات، وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التفشي صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وأما النوع الثالث: مما قد يسمى فناء.

فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الخلوّ والاتّحاد،

الخالق، ويشهدون المخلوق ولا يكون هناك تشويش وهم أكمل، هذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن والتي قام بها أهل التحقيق من الرسل والأنبياء والصحابة والتابعين. أما طريقة الصوفية ومسألة الشهود بهذه طريقة حصلت لهم بسبب ضعف قلوبهم وضعف تمييزهم وضعف إيمانهم فحصل لهم ما حصل.

وقوله وهذه هي الحقيقة التي : يبين المؤلف رحمه الله أن حال نبينا ﷺ أكمل من حال موسى ولا شك وكلاهما من أولى العزم، لكن نبينا محمد ﷺ هو أكمل أولى العزم ثم يليه جده إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم يليه موسى، وموسى حصل له تغشى أما نبينا ﷺ رأى من الآيات العظيمة لما أسرى به وعرج به إلى السموات السبع ورأى سدرة المتهوى وغضشه ما غشيه حُصل له أمور عظيمة ثم نزل بعد الإسراء والمعراج وحاله لم يتغير ولا ظهر عليه شيء لكمال ثباته عليه الصلاة والسلام.

الشرح : وهذا فناء الملاحدة وهو بأن يشهد أن لا موجود إلا الله فيقول كل ما تراه هو الله ، فالشمس يقولون هي الله ، والقمر يقولون هي الله ، والجدار هو الله ، وهذه مظاهر لتجلّى الحق بتجلّى في صورها والتعدد ، هكذا يقولون ، ألغوا عقولهم نسأل الله السلامة والعافية ، وهؤلاء الملاحدة من أعظم الناس

وهذا يرآ منه المشايخ إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله، ونحو ذلك فمرادهم بذلك ما أرى ربياً غيره، ولا خالقاً ولا مدبراً غيره، ولا إلهآ لي غيره، ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفاً منه أو رجاء له، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب.

فمن أحب شيئاً أو رجاه أو خافه التفت إليه. وإذا لم يكن في القلب محبة له ولا رجاء له، ولا خوف منه، ولا بغض له، ولا غير ذلك من تعلق القلب له، لم يقصد القلب أن يتلتفت إليه، ولا أن ينظر إليه، ولا أن يراه، وإن رأه اتفاقاً رؤية مجردة، كان كما لو رأى حائطاً ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به.

والمشايخ الصالحون رضي الله عنهم يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلى غير الله، ولا ناظراً إلى ما سواه، لا جبأ له ولا خوفاً منه، ولا رجاء له، بل يكون القلب فارغاً من المخلوقات، خالياً منها، لا ينظر إليها إلا بدور الله.

وهي أسماء وصفات لله هُوَ شيء واحد ويتجلّى في صورة كذا وفي صورة كذا يتجلّى في صورة معبود كما تجلّى في صورة فرعون ويتجلّى في صورة هادى كما تجلّى في صورة الرسل وهو واحد وكل هذا من كلام هؤلاء الملاحدة. وقوله وهذا يبدأ منه: أي المشائخ المستقيمين إذا صدر منهم كلمات موهمة فهي محمولة على معنى صحيح هو حق فإذا قال أحدهم ما أرى إلا الله فإنما يعني أنه مرأى غير الله ربياً ولا خالقاً ولا مدبراً، وليس المراد أنه ينكر المخلوقات.

وقوله والمشايخ الصالحون: هذا هو تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين لله سبحانه وتعالى، بأن يكون العبد ملتفتاً لله عز وجل ولا يتلتفت إلى غيره، ولا ينظر إلى ما سواه حبأ له وخوفاً ورجاءً، ولا ينظر إليها دون الله عز وجل ولا ينكر المخلوقات كما يقول الصوفية، بل يراها ويشهد لها على أنها مخلوقة مدبرة، ولكنه في تصرفه

فبالحق يسمع، وبالحق يصر، وبالحق يطش، وبالحق يمشي. فيحب منها ما يحبه الله ويعغض منها ما يبغضه الله ويواли منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويغار الله فيها، ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها، ولا يرجوها في الله، فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن بالحق العارف بمعرفة الأنبياء والمرسلين وبحقيقةتهم وتوحيدهم.

فهذا النوع الثالث: الذي هو الفناء في الوجود هو تحقيق آن فرعون ومعرفتهم وتوحيدهم كالقراططة وأمثالهم.

وأما النوع الذي عليه أتباع الأنبياء فهو الفناء الحمود، الذي يكون صاحبه به من أئمة الله عليهم من أوليائه المتقين، وحزبه المقلحين، وجنته الغالبين.

بالحق يسمع وبالحق يصر وبالحق يطش وبالحق يمشي، يحب ما يحبه الله ويعغض ما يبغضه الله ويواли ما يواлиه الله ويعادي ما يعاديه الله، ويغار الله فيها ولا يخافها في الله، قوله فبالحق يسمع: والقلب السليم الحنيف، لا ينكر المخلوقات ولكنها يثبتها على أنها مدببة، ويعمل فيها وفق ما شرع الله، فالشيء الذي أحبه الله منها يحبه والشيء الذي أبغضه الله منها يبغضه وهكذا، أما إنكارها فهذا فناء الملاحدة، وأما نسيانها من الشهود فهذا نقص فيها عظيم حصل للصوفية. والطريقة المثلثي والطريقة الصحيحة هو أن يشاهد الخالق على أنه خالق ويشهد المخلوق على أنه مخلوق ولا ينكر المخلوقات ولكن يحب منها ما أحبه الله ويعغض منها ما أبغضه الله ، هذا هو القلب السليم المؤمن الموحد.

وقوله فهذا النوع الثالث: أي أن فناء الملاحدة والزنادقة هو الفناء في الوجود وهو تحقيق أي فرعون وتوحيدهم من القراءات وأمثالهم.

وأما قوله وأما النوع الذي عليه أتباع: هذا تسميته فناء من باب المقابلة مع الأنواع الأخرى، ومعنى أنه يلغى الإنسان مراده لمراد الله ، يعني أن تقدم مراد ربك وتلغي مراد نفسك ، فإذا كانت نفسك وهو لك تهوي شيئاً والله تعالى أمر بشيء أو أمرك رسوله بشيء فإنك تلغى مرادك وهو لك لمراد الله ، فتقدم مراد

الله على مرادك، فمثلاً الله تعالى أمرك أن تؤدي الصلاة في وقتها، فإذا كان مرادك أن تنام وعندك الرغبة في النوم في وقت الصلاة فإنك تلغى هذا المراد وتبطله لمراد الله، وهكذا، توافق الله في محابه ومراده، فهذا سمي فناء لأن الإنسان يفني ويلغى مراده لمراد الله، وهذا من الفناء المحبوب.

وخلاصة ما سبق: أن فناء الملاحدة والزنادقة هو الفناء في الوجود وهو تحقيق آل فرعون وتوحيدهم من القرامطة وأمثالهم. وأما الفناء المحمود فهو الفناء عن مراد السوي، بمعنى أنه يقدم مراد الله على مراد نفسه.

وبين المؤلف رحمة الله أن الصوفية لما قسموا الناس إلى ثلاثة أقسام: العامة والخاصة، جعلوا الكل طائفة ذكرا، فقالوا إن ذكر العامة: لا إله إلا الله وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، هذا هو ذكر العامة عندهم، العامة عندهم جميع الأنبياء والمرسلين. لأنهم محجوبون عن الوصول إلى ما وصلت إليه الخاصة، أما الخاصة فإنهم خرقوا الحجاب ووصلوا إلى المعرفة التامة وألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفة الله، فصاروا خاصة، ارتفوا عن درجة العامة إلى درجة الخاصة، فصار ذكرهم قصيرا ولا يحتاجون إلى الذكر الطويل: لا إله إلا الله، بل يأخذون لفظ الجلالة فقط، فذكر الخاصة: الله الله الله الله. هكذا، وهذا موجود الآن في هذا العصر في كثير من البلاد الإسلامية غير بلدنا، موجود في أفريقيا وفي باكستان وفي غيرها، يقول بعض الإخوان إنه مر على جماعة في المسجد من بعد العصر إلى المغرب وهم يذكرون بلفظ الجلالة الله الله الله الله. هكذا، حتى يغمى على الإنسان فيسقط، وهذا ذكر الخاصة.

أما خاصة الخاصة والعياذ بالله فهم الذين يصلون إلى القول بوحدة الوجود فالذكر عندهم أقصر من ذكر الخاصة فهم يأخذون حرف الهاء فقط من لفظ

الجلاله يقول أحدهم هو هو هو، يا هو يا هو، يجلسون يوهوهون كالكلاب
- نسأل الله العافية. هذا ذكرهم، حتى إن ابن عربي رئيس وحدة الوجود صنف
كتاباً سماه كتاب الهو، كما ذكر المؤلف رحمة الله .

ومن العجيب أن هؤلاء يستدللون على باطلهم من القرآن وهم لا يؤمنون
بالله ولا بالقرآن فيستدللون على ذكر الخاصة (الله) بقول الله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (قل الله) هذا الدليل على ذكر الخاصة مع أن هذه الآية
جاءت في جواب سؤال ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
أَتَجْعَلُونَهُ قَرْأَطِيسًا تَبْدُونَهُ وَتَخْفُونَهُ كَثِيرًا وَعْلَمْتُمْ مَا لَا تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاءُكُمْ، قُلْ اللَّهُ أَكَبَرُ﴾ أي
قل الله أنزله ، فقالوا (الله) يعني هذا ذكر الخاصة . كما أن خاصة الخاصة
استدلوا على باطلهم وبأن ذكر خاصة الخاصة : (هو) تقول الله تعالى : ﴿وَمَا
يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي وما يعلم تأويله إلا الله ، قال شيخ الإسلام رحمة الله
فقلت لهم لو كان الأمر كما تقولون لكتب الآية : وما يعلم تأويله هو يفصل هو
عن الفعل ، لكن الهاء في الآية لم تفصل عن الفعل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ ، مع أن
هؤلاء والعياذ بالله لا يعترفون بالقرآن ولا بالسنة حتى قيل ، لبعض هؤلاء
الملاحدة الزنادقة : إن القرآن يخالف ما تقولون ، فقال «إن القرآن من أوله إلى
آخره شرك وحق ما نقوله . نعم هكذا يقول هؤلاء الملاحدة ، فمن يقول
بوجودين خالق ومخلوق فهو مشرك عندهم ، والقرآن فرق بين الخالق
والمخلوق فيكون شركاً عندهم ، فماذا يكون الحكم على هؤلاء الملاحدة
الزنادقة؟ نسأل الله السلامة والعافية .

والشيخ رحمة الله أفاض في هذا وبين أن الكلمة الواحدة (الله) أو الضمير
(هو) لا يفيد القلب إيماناً ولا معرفة ولا توحيداً، إذ ليس بجملة تامة تفيد

وليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول، أن الذي أراه بعيني من الخلوقات: هو رب الأرض والسموات، فإن هذا لا ي قوله إلا من هو في غاية العنال والفساد، إما فساد العقل، وإما فساد الاعتقاد. فهو متعدد بين الجنون والإلحاد.

وكل المشايخ الذين يقتدى بهم في الدين متتفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، من أن الخالق سبحانه مباني للمخلوقات، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث، وتمييز الخالق عن الخلق، وهذا في كلامهم أكثر من أن يُعْكِن ذكره هنا.

معنى، إذ الفائدة في الجملة التامة (لا إله إلا الله) فهي نفي وإثبات، (سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) هذه كلها جمل مفيدة. والإنسان حينما يقول باسم الله، فهي متعلقة في فعل مقدر بحسب المقام فإذا كان يأكل يقدر باسم الله أكل. إذا كان يقرأ فقدر باسم الله أقرأ، فهي جملة مفيدة، وقد ظهر المقدر في قوله تعالى «بِسْمِ اللَّهِ الْمُجَرَّدِ» وفي قوله «إِقْرَا بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» و«سُبْحَانَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» و«سُبْحَانَ رَبِّ الْعَظِيمِ»، وليس المراد الذكر بالاسم المفرد، ولم يأت نص واحد بالأمر فالذكر بالاسم المفرد أو المضمر لأنه لا يفيد القلب توحيداً ولا إيماناً ولا معرفة وليس فيه فائدة، إذ الفائدة إنما تكون في الجملة التامة. وجماع الدين أصلان لا يعبد إلا الله وهذا هو تحقيق شهادة (الله إلا الله)، وألا يعبد إلا بما شرع، وهذا تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله.

وقوله ليس مراد المشايخ: هذا بيان لقوله فيما سبق إن بعض المشايخ يقول: ما أرى غير الله، يقول ليس مراده أنه ينكر المخلوقات، بل مراده ما أرى غير الله ربي أو خالقاً أو مديراً.

وقوله وكل المشايخ: أى أن الله سبحانه وتعالى منفصل عن المخلوقات،

وهم قد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات، فإن بعض الناس قد يشهد وجود الخلوقات، فيظنه خالق الأرض والسماءات - لعدم التمييز والفرقان في قلبه - بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس التي في السماء.

وهم قد يتكلمون في الفرق والجمع، ويدخل في ذلك من العبارات المختلفة نظير ما دخل في الفتاء.

فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في الخلوقات يبقى قلبه متعلقاً بها مشتتاً ناظراً إليها، وتعلقه بها، إما محبة، وإما خوفاً، وإما رجاء، فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

الخلوقات التي سقفها عرش الرحمن فهو سبحانه والله تعالى منفصل عن المخلوقات لم يدخل في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، والمخلوقات سقفها عرش الرحمن هو نهايتها تنتهي وإذا انتهت المخلوقات فالله تعالى فوقها مستر على العرش باين من خلقه وهو سبحانه الحاصل لحملة العرش بقوته وقدرته لا يحتاجون إلى شيء سبحانه وتعالي. قوله : (يجب إفراد القديم عن الحادث) القديم هو الله يعني الأول - عن الحادث - هو المخلوق، يتميز الخالق عن المخلوق، فالجهمية الذين قالوا : إن الله حاله في المخلوقات ما أفردوا القديم عن الحادث ولا ميزوا الخالق عن المخلوق بل جعلوا الخالق مختلطًا بمخلوقاته ، وهذا كفر وضلالة ، نسأل الله العافية .

وقوله إن العبد إذا : هكذا يزعم بعض الصوفية أن الواحد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات من أراضين وسماءات وبحار وأنهار وأشجار صار ذهنه مشتتاً ، فإذا تناستها ولم يشهدها صار قلبه موحداً على الله ، هكذا يزعمون ، ثم يتوصل بهم الشيطان ويتردّج بهم إلى أن ينكروا المخلوقات ويقولوا بوحدة الوجود .

فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى الخلقين، فصارت محنته إلى ربه، وخوفه من ربها، ورجاؤه لربها، واستعانته بربها، وهو في هذه الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى الخلق، ليفرق بين الخالق والخلق فقد يكون مجتمعاً على الحق، معرضاً عن الخلق، نظراً وقصدأ، وهو نظير النوع الثاني من الفناء.

ولكن أكمل من ذلك الفريق الثاني، وهو أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله، مدبرة بأمره، ويشهد كثرتها معدومة بوحديانية الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه رب المصنوعات وإليها، وحالها ومالكها، فيكون - مع اجتماع قلبه على الله إخلاصاً ومحبة وخوفاً ورجاء واستعانته وتوكلاً على الله وسوانة فيه، وسعادة فيه - وأمثال ذلك - ناظراً إلى الفرق بين الخالق والخلق، مميزاً بين هذا وهذا، يشهد تفرق المخلوقات وكثيرها، مع شهادة أن الله رب كل شيء ومليكه وحالقه وأنه هو الله لا إله إلا هو.

وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم، وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته، وفي حال القلب وعبادته، وقصده وإراداته، ومحنته وموالاته وطاعته.

وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق، وثبتت في قلبه ألوهية الحق.

وقوله فالتفت: وهذا النوع الثاني من الفناء هو الفناء عن شهود السوى يعني أنه يشهد الخالق ويتناسى المخلوقات لا ينكرها لكن يتناسها حتى لا تشوش عليه، هكذا يزعمون.

وقوله ولكن أكمل: هذا هو الكمال، وهو أكمل من شهود أهل الفناء الثاني ، يشهد الله على أنه رب الخالق المدبر المعبود المالك ، ويشهد المخلوقات على أنها كانت معدومة ، ولكن الله أوجدها وأنه سبحانه ربها وإليها وحالقها ومالكها ، هذا هو الكمال .

وقوله وهذا هو الشهود: لأنها تنفي عن قلبه إلهية ما سوى الحق في قول (لا إله) وثبت في قلبه الحق في قول (إلا الله) فصدرها ينفي إلهية ما سوى الله

فيكون نافياً لألوهية كل شيء من الخلوقات، مثبتاً لألوهية رب العالمين، رب الأرض والسماءات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله، وعلى مفارقة ما سواه، فيكون مفرقاً في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته: بين الخالق والخلق، بحيث يكون عالماً بالله تعالى، ذاكراً له، عارفاً به. وهو مع ذلك عالم ببرياته خلقه، وإنفراده عنهم، وتوحده دونهم.

ويكون محباً لله، معظماً له، عابداً له، راجياً له، خائفاً منه، محباً فيه مواليًا فيه، معادياً فيه، مستعيناً به، متوكلاً عليه، ممتنعاً عن عبادة غيره، والتوكيل عليه، والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى.

وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه، يتضمن إقراره بربوبيته وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره، فحيثئذ يكون موحداً لله.

ويبين ذلك أن أفضل الذكر **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** كما رواه الترمذى، وابن أبي الدنيا، وغيرهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: **(أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ)**^(١).

وعجزها يثبت إلهية الحق **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** نفي وإثبات.

وقوله فيكون نافياً: هذا هو التوحيد الصحيح، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم. التفرقة بين الخالق والخلق، فالله تعالى له قدره وعظمته والخلق له مكانته، فالمخلوق مدبر مصرف مقهور، وهو من أدلة قدرة الله ووحدانيته، والله تعالى هو الخالق المستحق للعبادة، وهو المفرد بالتصرف والتدبير).

(١) رواه الترمذى [٣٣٨٣] وابن أبي الدنيا في الشكر [١٠٣]، والنمساني في عمل اليوم والليلة [٢٨٠٠]، وابن ماجه [٢٨٣١] من طريق موسى بن إبراهيم الأنصاري بسنده حسن.

وفي الموطأ وغيره عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن النبي ﷺ قال: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على شيء قدير»^(١).

ومن زعم أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة: هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة:
هو الاسم المضمر، فهم ضالون، غالطون.

وقوله أفضلي ما قلت: هذا أفضلي الذكر؛ فأفضلي ما تكلم به الناس كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، لكن أفضلي الكلام على الإطلاق هو كلام الله عز وجل، ثم بعد كلام الله أفضلي ما يتكلم به الناس كلمة التوحيد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) (لا إله إلا الله) لأن معناها لا معبود بحق إلا الله.

وقوله ومن زعم: هؤلاء هم الصوفية يزعمون أن ذكر العامة (لا إله إلا الله)، وأن ذكر الخاصة الاسم المفرد (الله)، وذكر خاصة الخاصة الاسم المضمر وهو (الباء) من لفظ الحاللة (هو)، فهم ضالون غالطون، ولا شك في أن هذا ضلال فإن خاصة الخاصة على الحقيقة هم الأنبياء والرسلون، وأفضليهم أولوا العزم وذكراهم (لا إله إلا الله) فإنهم أمروا قومهم بأن يقولوا لا إله إلا الله، وهم خاصة الخاصة، ولما سأله موسى ربه ذكرًا يذكره به، قال الله له يا موسى: قل لا إله إلا الله، قال: يا ربِي كل عبادك يقولون هذا، يعني يريد شيئاً يختص به، فقال ربُّك سبحانه وتعالى: يا موسى. لو أن السموات السبع وعمرهن، والأراضين السبع كانت في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله).

(١) رواه مالك [١/٤٢٢] والبيهقي [٤/٢٨٤] و[٥/١١٧] وانظر السلسلة الصحيحة

للشيخ الألباني حفظه الله تعالى [١٥٠٣].

واحتاج بعضهم على ذلك بقوله **﴿فَلِلَّهِ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾**^(١). من أين غلط هؤلاء، فإن الاسم الله، مذكور في الأمر بجواب الاستفهام في الآية قبله، وهو قوله **﴿فَلِلَّهِ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدِّلُونَهَا وَتُخْفِونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ لَا آبَارُكُمْ قُلِّ اللَّهُ﴾**^(١). أي الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فالاسم الله مبتدأ، خبره قد دل على الاستفهام، كما في نظائر ذلك، تقول من جاره؟ فيقول زيد.

وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً، فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة.

ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي.

ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً لا يحكم عليه ببني ولا إبلات.

وقوله واحتجاج بعضهم: هكذا يحتجون بهذه الآية لإثبات باطلهم مع أنهم لا يعترفون بالقرآن.

وقوله وأما الاسم: لكن هؤلاء تجاوزوا القرآن ولو كانوا يؤمنون بالقرآن ما قسموا الناس هذه الأقسام، ولا زعموا أن الخاصة فوق الأنبياء والمرسلين وأن المرسلين من العامة.

وقوله ولا يتعلق به إيمان: أي أن الاسم المفرد (الله) أو (هو) ما يتعلق به إيمان أي توحيد، إذ التوحيد في الجملة التامة (لا إله إلا الله)، أما (الله. الله) ما فيها توحيد، (هو. هو) ما فيها توحيد ولا إيمان ولا كفر ولا حق ولا باطل ولا يزيد القلب إيماناً ولا معرفة وليس فيه فائدة، بل إنها كما سبين المؤلف رحمه الله سبب في تصورات باطلة وسبب للوقوع في أنواع وفنون من الإلحاد والاتحاد.

(١) سورة الانعام: ٩٢.

فإن لم يقتنن به من معرفة القلب وحاله، ما يفيد بنفسه، وإنما لم يكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره.

وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات.

حال لا يقتدى فيها ب أصحابها، فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به، إذ لو مات العبد في هذه الحال، لم يمت إلا على ما قصده ونواه، إذ الأعمال بالنيات.

وقوله وقد وقع بعض : أي أن الصوفية يواطئون على هذا الذكر ، مستمرون عليه ، لكنهم بسبب مواطبيتهم على هذا الذكر وقعوا في فنون من الإلحاد وفنون من الاتحاد - نعوذ بالله من ذلك - والاتحاد: هو القول بالاتحاد الخالق مع المخلوق . وكما سبق ببعضهم يواطئ على هذا الذكر من بعد العصر إلى المغرب يردد لفظ الجلالة (الله . الله . الله) أو الهاء : (هو . هو . هو) فإذا استمرا على ذلك ساعتين أو ثلث أو أربع ساعات فماذا يكون حالهم؟ في الغالب أنه يغمى عليهم .

وقوله وما يذكر عن : بعض شيوخ الصوفية لما قيل له : لماذا لا تقول (لا إله إلا الله) ، قال : أخاف إذا قلت لا إله أموت وأنا ما وصلت إلى الله ، أخاف أن أموت بين النفي والإثبات فأكون مشركاً ، فأنا أكتفى واحدة وهي : الله الله الله؟ وقد رد عليهم المؤلف رحمة الله بأنه لو فرض أنه مات فالعبرة بنيته إذا كان موحداً فلا يضره ، لأنه مات بدون اختياره وهو موحد ، وإنما الأعمال بالنيات ، فهذا كله تأويل ومحذور باطل لبعض الشيوخ .

وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بلقين الميت: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١). وقال: «مَنْ كَانَ أَخْرَى كَلَامَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

ولو كان ما ذكره ممحذوراً، لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثناها موتاً غير محمود، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

والذكر بالاسم المفرد أو المضمر أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلal الشيطان، فلن من قال: يا هو يا هو، أو : هو هو، ونحو ذلك، لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوّره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل.

وقد صنف صاحب «الفصوص» كتاباً سماه كتاب الـ«هو» وزعم بعضهم أن قوله: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ»^(٣). معناه، وما يعلم تأويله هذا الاسم الذي هو الهو، وإن كان هذا مما اتفق المسلمين بل العقلاء على أنه من أبين الباطل، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء، حتى قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك: لو كان هذا كما قلته لكتب الآية: وما يعلم تأويله (هو) منفصلة. ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتاج على قول القائل: «الله» بقوله: «فَلِلَّهِ ثُمَّ

وقوله ولو كان ما ذكره: أي لو كان في هذا الذكر ممحذور ما أمر النبي ﷺ أن يلقن الميت لا إله إلا الله، لأنه أيضاً يخشى أن يموت الميت في أثناها فلو كان في هذا ممحذور ما أمر به النبي ﷺ، فلما أمر به دل على أنه ليس فيه ممحذوراً.

وقوله والذكر بالاسم: الضمير في قوله هو يعود إلى ما يصوّره قلبه وينحته فكره من معبوده الذي يعبد.

وقوله وقد صنف: أي أن صاحب كتاب الفصوص هو محمد ابن عربي.

(١) رواه مسلم [٩١٧].

(٢) رواه أبو داود [٣١٦] والحاكم [١/ ٣٥١].

(٣) آل عمران: ٧.

ذَرْهُمْ^(١)). ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد.

وهذا غلط باتفاق أهل العلم، فلن قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَعْنَاهُ: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَعْلَمُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدِّلُونَهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آيَاتُكُمْ قُلِ اللَّهُمَّ﴾^(١). أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى رد بذلك قول من قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾. فقال: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾. ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ أَنْزَلْتَهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ الْمَكْذِبِينَ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وما يبين ما تقدم، ما ذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو: أن العرب يحكمون بالقول ما كان كلاماً لا يحكمون به ما كان قوله. فالقول لا يحكى به إلا كلام تام، أو جملة اسمية، أو جملة فعلية، ولهذا يكسرون «إن»، إذا جاءت بعد القول، فالقول لا يحكى به اسم، والله تعالى لا يأمر أحداً بذكر اسم مفرد، ولا شرع للMuslimين ذكرًا باسم مفرد مجرد.

وقوله وهذا غلط: يبحث المؤلف رحمه الله بحثاً لغوياً، فإن سيبويه إمام النحو وكذلك غيره من أئمة النحو يقررون أن العرب يحكمون بالقول ما كان كلاماً لا يحكمون به جملة أو كلمة واحدة، وكلمة ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ هذه قول يحكى به كلام ولا يحكى به كلمة؟، فدل على أن قوله هذا ﴿قُلِ اللَّهُ أَنْزَلَهُ﴾ جملة وليس كلمة واحدة، لأن سيبويه وأئمة النحو قرروا بأن العرب تحكمي بالقول ما كان كلاماً، لا تحكمي بالقول كلمة واحد، والآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ قول وكلام و﴿قُل﴾ يأتي بعدها جملة مفيدة لا تأتي بعدها كلمة واحدة ﴿قُلِ اللَّهُ أَنْزَلَهُ﴾.

(١) سورة الأنعام ٩١.

والاسم المجرد لا يفيد شيئاً من الإيمان باتفاق أهل الإسلام، ولا يؤمن به في شيء من العبادات، ولا في شيء من الخطابات.

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد: ما يذكر أن بعض الأعراب من مؤذن يقول: «أشهد أن محمد رسول الله» - بالنصب - فقال: ماذا يقول هذا؟ هذا الاسم، فأين الخبر عنه الذي يتم به الكلام.

وما في القرآن من قوله: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رِبِّكَ وَتَبَّلِ إِلَيْهِ تَبَّلًا﴾^(١) ﴿وَسَبِّحْ اسْمَ رِبِّكَ

وقوله والاسم المجرد: يقصد المؤلف أن الاسم المفرد كلمة واحدة لا تفيد إيماناً لا يفيد الإيمان كلمة (الله) أو كلمة (محمد) وحدها، لا بد أن تضيف لها كلمة أخرى حتى تكون جملة مفيدة «مثل الله أكبر»، و«سبحان الله»، وهكذا ولا تفيد الكلمة الواحدة شيئاً يستفاد به في المخاطبة حتى تضم إليها كلمة أخرى أو كلمتان فيكون جملة مفيدة.

وقوله ونظير من اقتصر: أشهد أن محمداً رسول الله «أن» حرف توكيـد ونصـب، «مـحمدـاً» اسمـها منـصـوب، «رسـولـ خـبرـهاـ، فـأـنتـ تـشـهـدـ أـنـ مـحمدـاـ رسـولـ اللهـ، فـإـذـاـ فـتـحـتـ رسـولـ وـقـلـتـ «أـشـهـدـ أـنـ مـحمدـ رسـولـ اللهـ» لـمـ يـأتـ الخـبرـ، فـأـينـ الخـبرـ؟ـ يـحـتـمـلـ أـنـ يـأـتـيـ بـعـدـ فـتـقـولـ «أـشـهـدـ أـنـ مـحمدـاـ رسـولـ اللهـ صـادـقـاـ هـوـ الخـبرـ، فـإـذـاـ نـصـبـتـ رسـولـ اللهـ فـمـاـ جاءـ الخـبرـ، وـإـذـا رـفـعـتـهاـ صـارـ هـوـ الخـبرـ، عـلـىـ أـنـ هـنـاكـ لـهـاـ تـوـجـيـهـ، يـعـنـيـ لـوـ وـجـدـنـاـ مـؤـذـنـاـ يـلـحنـ وـيـقـولـ (أـشـهـدـ أـنـ مـحمدـاـ رسـولـ اللهـ)ـ فـلـهـاـ تـوـجـيـهـ، هـنـاكـ مـنـ يـرـىـ فـتـحـ الجـزـئـيـنـ وـيـرـىـ أـنـ الخـبرـ قـدـ يـفـتـحــ يـعـنـيـ عـلـىـ قـوـلــ وـإـنـ كـانـ غـيـرـ مشـهـورـ.

الأعلى)^(١). قوله : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَنِي^(٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى^(٢)». قوله «فَسَبَّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ^(٣)». ونحو ذلك لا يقتضي ذكره مفرداً. بل في «السنن»^(٤) أنه لما نزل قوله «فَسَبَّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ^(٥)». قال : «اجعلوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» ولما نزل قوله : «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى^(٦)» وقال : «اجعلوهَا فِي سجودِكُمْ».

وفي «ال الصحيح»^(٥) أنه كان يقول في رکوعه : «سبحان ربِّي العظيم». وفي سجوده «سبحان ربِّي الأعلى»، وهذا هو معنى قوله : «اجعلوهَا فِي رُكُوعِكُمْ وسجودِكُمْ»، باتفاق المسلمين.

فتسبح اسم ربِّي الأعلى وذكر اسم ربِّي ونحو ذلك هو بالكلام النام المفيد، كما في «ال الصحيح»^(٦) عنه عليه السلام أنه قال : «أفضل الكلام بعد القرآن أربع - وهن من القرآن : سبحان

وقوله «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَنِي^(٤)» : يعني هذه الآيات ليس المراد بها ذكر ربِّك : (الله الله) فقط أو «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ^(٧)» ليس المراد كلمة واحدة، بل المراد يقول ذكر ربِّك وسبح اسم ربِّك ، فسبح باسم ربِّك العظيم المراد الجملة التامة المفيدة «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ^(٨)» قل سبحان ربِّي العظيم، أو قل سبحان ربِّي الأعلى ، كما جاء في الحديث عن النبي صلوات الله عليه وسلم أنه قال (اجعلوهَا فِي رُكُوعِكُمْ واجعلوهَا فِي سجودِكُمْ). لا بكلمة واحدة).

(١) سورة الأعلى : ١ .

(٢) سورة الأعلى : ١٤ - ١٥ .

(٣) سورة الرواقعة : ٧٤ .

(٤) رواه أبو داود [٨٦٩] وابن ماجه [٨٨٧] وأحمد [٤/١٥٥] انظر العبودية بتعليق الشيخ علي حسن عبد الحميد.

(٥) صحيح مسلم [٧٧٢].

(٦) كما في صحيح مسلم [٢١٣٧] نحوه وعلقه البخاري في صحيحه [١١/٥٦٦].

الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبير».

وفي «ال الصحيح»^(١) عنه عليهما السلام أنه قال: «كل مтан خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وفي «ال الصحيحين»^(٢) عنه عليهما السلام أنه قال: «من قال في يومه مائة مرّة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر، كتب الله له حرزاً من الشيطان يومه ذلك، حتى يسمى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا رجل قال مثل ما قال أو زاد عليه».

وقوله سبحان الله: كل ماضي من الآيات والأحاديث كلها جمل مفید وقدد المؤلف في هذا الرد على الصوفية الذين يزعمون أن ذكر الخاصة كلمة واحدة وهي (الله) وذكر خاصة الخاصة حرف وهو: (هو)، كل هذه النصوص ردت عليهم.

وقوله وفي الصحيح: أي أن كل كلمة جملة مفید، والكلمة تطلق على الكلام المفید، ولهذا يقال فلان ألقى كلمة وهي الخطبة.

وقوله وفي الصحيحين: هذا الحديث في الصحيحين كما ذكر المؤلف، لكن له تكميلة وهو أن النبي عليهما السلام قال: «من قال حين يصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر، كان كمن اعتق عشرة أنفس من ولد إسماعيل وكتب الله له مائة حسنة، ومحى عنه مائة سيئة وكان في يومه في حزر من الشيطان حتى يسمى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا من قال مثل ما قال أو زاد عليه».

(١) رواه البخاري [٦٤٠٦]، [٦٦٨٢]، [٧٥٦٣]، ومسلم [٢٦٩٤].

(٢) رواه البخاري [١١٦٨/١١]، ومسلم [٢٦٩١].

ومن قال في يومه مائة مرة: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زيد البحر.

وفي «الموطأ»^(١) وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلِي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». وفي «سنن ابن ماجه» وغيره عنه ﷺ أنه قال: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله وأفضل الدعاء: الحمد لله».

ومثل هذه الأحاديث كثيرة في أنواع ما يقال من الذكر والدعاء.

وكذلك ما في القرآن من قوله تعالى: «ولَا تَأْكُلُوا مَا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٢) وقوله: «فَكُلُّوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٣). إنما هو قول: باسم الله. وهذه جملة تامة، إما اسمية، على أظهر قول النهاة، أو فعلية. والتقدير: ذبحي باسم الله أو أذبح باسم الله.

وقوله ومن قال: كل هذه جمل مفيدة (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)، وفي الحديث الآخر من قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) عشر مرات كان كمن اعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل، وإذا قالها مائة كان كمن اعتق عشرة ويكتب له مائة حسنة ويُمحى عنه مائة سيئة ويكون في يومه في حرز من الشيطان.

وقوله وكذلك ما في القرآن: يعني إذا قدرت ذبح باسم الله صارت جملة إسمية، وإذا قدرت أذبح باسم الله صارت جملة فعلية، فالقصد أنه حين يقول الإنسان (بسم الله) أنها جملة مفيدة لأنها متعلقة بالمحذوف، لأن المقدر

(١) سبق تخريرجه.

(٢) سورة الأنعام : آية ٢ .

(٣) سورة المائدة : آية ٥ .

وكذلك قول القارئ «بسم الله الرحمن الرحيم». فتقديره: قراءتي باسم الله، أو أقرأ باسم الله. ومن الناس من يضمر في مثل هذا: ابتدائي باسم الله، أو ابتدأت باسم الله.

وال الأول أحسن، لأن الفعل كله مفعول باسم الله، ليس مجرد ابتداء، كما أظهر المضمر في قوله: «أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»^(١) وفي قوله: «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاً هَا وَمُرْسَاهَا»^(٢). وفي قول النبي ﷺ: «من كان ذبح قبل الصلاة للذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح للذبح باسم الله»^(٣).

ومن هذا الباب قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح^(٤) لربيه عمر بن أبي سلمة: «يا غلام، سُمِ الله، وَكُلْ بِيْمِينِكَ، وَكُلْ مَا يَلِيكَ».

فالمراد أن يقول: باسم الله، ليس المراد أن يذكر الاسم مجرداً.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح^(٥) لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل». .

وكذلك قوله الله ﷺ: «إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله، وعند خروجه، وعند طعامه، قال الشيطان: لا ميت لكم ولا عشاء»^(٦).

إذا كنت تذبح تقول ذبحي باسم الله أو أذبح باسم الله، إذا كنت تأكل تقول أكلي باسم الله أو آكل باسم الله، إذا كنت تقرأ تقول قراءتي باسم الله أو أقرأ باسم الله، وهكذا يقدر المحوف من جنس الفعل الذي يريدته الإنسان.

(١) سورة العلق: آية ١.

(٢) سورة هود آية ٤١.

(٣) أخرجه البخاري [١٧/١٠]، ومسلم [١٩٦٠].

(٤) روأه البخاري [٥٣٧٦]، ومسلم [٢٠٢٢].

(٥) روأه البخاري [٦٠٩/٩]، ومسلم [١٩٢٩].

(٦) روأه مسلم [٢٠١٨] روأه أبو داود [٣٧٦٥]

وأمثال ذلك كثيـر.

وكذلك ما شرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجتهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى، إنما هو بالجملة التامة، كقول المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

وقل المصلي: الله أكبر، سبحان ربِّ العظيم، سبحان ربِّ الأعلى، سمع الله لمن حمده، ربنا ولكلَّ الحمد، التحيات لله.

وقول الملبي: ليك اللهم ليك. وأمثال ذلك.

فجميع ما شرعه الله من الذكر، إنما هو كلام تام، لا اسم مفرد، لا مظهر ولا مضمير.

وهذا هو الذي يسمى في اللغة: كلمة، كقوله: كلمتان خفيتان على اللسان، ثقيتان في الميزان، حبيتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

وقوله: «أفضل كلمة قالها الشاعر»: كلمة ليـد: (الـأـلـاـكـلـشـيـءـ ماـخـلـاـلـالـلـهـ باـطـلـ) ^(١).

ومنه قوله تعالى: «كَبَرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفواهِهِمْ» ^(٢). الآية. قوله: «وَتَمَتْ كَلِمَةٌ رَبِّكَ صِدِّقًا وَعَدَلًا» ^(٣).

وأمثال ذلك ما استعمل فيه لفظ: «الكلمة». من الكتاب والسنـة، بل وسائر كلام العرب، فإنما يراد به الجملة التامة، كما كانوا يستعملون الحرف في الاسم، فيقولون: هذا حرف غريب، أي لفظ الاسم غريب.

وـقـسـمـ سـيـوـيـهـ الـكـلـامـ إـلـىـ: اـسـمـ، وـفـعـلـ، وـحـرـفـ جاءـ لـعـنـيـ لـيـسـ بـاسـمـ وـلـأـفـعـلـ، وـكـلـ منـ

(١) أخرجه البخاري [٣٨٤١]، ومسلم [٢٢٥٦].

(٢) سورة الكهف : ٥.

(٣) سورة الأنعام: ١١٥.

هذه الأقسام يسمى حرفًا. لكن خاصة الثالث: أنه حرف جاء معنى ليس باسم ولا فعل.
وسمى حروف الهجاء باسم الحرف، وهي أسماء.

ولفظ الحرف يتاول هذه الأسماء وغيرها، كما قال عليه السلام : من قرأ القرآن فأعزبه الله بكل حرف عشر حسنان، أما إني لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف.
وقد سأله الخليل بن أحمد. أصحابه عن النطق بحرف الزاي من زيد؟ فقالوا «زاي». فقال:
جسم بالاسم، وإنما الحرف : (ز).

ثم إن النحاة اصطلعوا على أن هذا المسمى في اللغة بالحرف، يسمى: الكلمة، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء معنى ليس باسم ولا فعل، كحروف الجر ونحوها.

وأما ألفاظ حروف الهجاء، فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ، وتارة باسم ذلك الحرف، وما غالب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا في لغة العرب.
ومنهم من يجعل لفظ الكلمة في اللغة لفظاً مشتركاً بين الاسم مثلاً، وبين الجملة، ولا يعرف في صريح اللغة من لفظ : «الكلمة» إلا الجملة التامة.

والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر الله سبحانه، هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، ويجذب القلوب إلى الله ومعرفته، ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية، والمقاصد السامية.
وأما الاقتصر على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً، فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين.

بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذرية إلى تصورات وأحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتخاد. كما تعد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضوع.

فصل

وجماع الدين أصلان

أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبد إلا بما شرع، لا نعبد بالبدع.

كما قال تعالى: **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**^(١).

وذلك تحقيق الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله.

ففي الأولى: أن لا نعبد إلا إياه.

وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره.

وقد بين لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأعتبر أنها ضلاله.

قال تعالى: **﴿وَبَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا مُّبْحَزُونُونَ﴾**^(٢).

كما أتنا مأمورون أن لا تخاف إلا الله، ولا تتوكل إلا على الله، ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله، وأن لا تكون عبادتنا إلا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه، ونتأسى به، فالحلال ما حمله، والحرام ما حرمته، والدين ما شرعه.

قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهُ سَيِّدُنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾**^(٣). فجعل الإيماء، لله ولرسوله، كما قال: **﴿وَمَا آتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾**^(٤).

(١) سورة الكهف: آية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: آية ١١٢.

(٣) سورة التوبة: آية ٥٩.

(٤) سورة الحشر: آية ٧.

وجعل التوكل على الله وحده بقوله: ﴿وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ﴾^(١). ولم يقل: ورسوله، كما قال في وصف الصحابة رضي الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشُوْهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيل﴾^(٢).

ومثله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسِبْكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). أي حسبك وحسب المؤمنين، كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدَهُ﴾^(٤). ثم قال: ﴿وَسَيُؤْتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾^(٥) فجعل الإيتاء لله ولرسوله، وقدم ذكر الفضل لله، لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين.

وقال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ دَارِغُونَ﴾^(٦). فجعل الرغبة إلى الله وحده، كما في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(٧) و﴿إِلَى دِرْبِكَ فَارْجِبْ﴾^(٨).

وقال النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سالت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٩).
والقرآن يدل على مثل هذا في غير موضع.

فجعل العبادة والخشية والتقوى لله، وجعل الطاعة والحبة لله ورسوله، كما في قول نوح عليه السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُوْهُ وَأَطِيعُونَ﴾^(١٠).

(١) سورة التوبه : آية ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٧٤ .

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٤ .

(٤) سورة الزمر : آية ٣٦ .

(٥) سورة التوبه : آية ٥٩ .

(٦) سورة التوبه : آية ٥٩ .

(٧) سورة الشرح : ٧-٨ .

(٨) سبق تخريرجه .

(٩) سورة نوح : آية ٣ .

وقوله : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَقْتَدِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١).

وأمثال ذلك.

فالرسول أمروا بعبادته وحده، والرغبة إليه، والتوكيل عليه وطاعته، والطاعة لهم، فأفضل الشيطان النصارى وأشياهم، فأشركوا بالله وعصوا الرسول، فاتخذوا أجرارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكلون عليهم، ويسألونهم مع معصيتهم لأمرهم، ومخالفتهم لستتهم، وهدى الله المؤمنين إخلصين لله، أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه، فلم يكونوا من المفضوب عليهم ولا الضالين، فأخلصوا دينهم لله وأسلموا وجوههم لله، وأنابوا إلى ربهم، وفوضوا أمرهم إليه، وتوكلوا عليه، وأطاعوا رسوله، وعزروهم ووقوفهم، وأحبهم ووالهم، واتبعهم واقتضوا آثارهم، واهتدوا بمنارهم.

وذلك هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد ديناً إلا إياه.

وهو حقيقة العبادة لرب العالمين.

فنسأل الله العظيم أن ي庇تنا عليه. ويكملها ويعينا عليه، وسائر إخواننا المسلمين.

الفَهْرِسُ

	المقدمة	٣
	فصل في وجوب الأمر بالمعروف	٣٤
	خلاصة الباب الأول	٧٠
	فصل في التفاضل بالإيمان	٧١
	فصل في الفرق بين الخالق والمخلوق	١٤٥
	وجماع الدين أصلان	١٧٢
	الفهرس	١٧٥